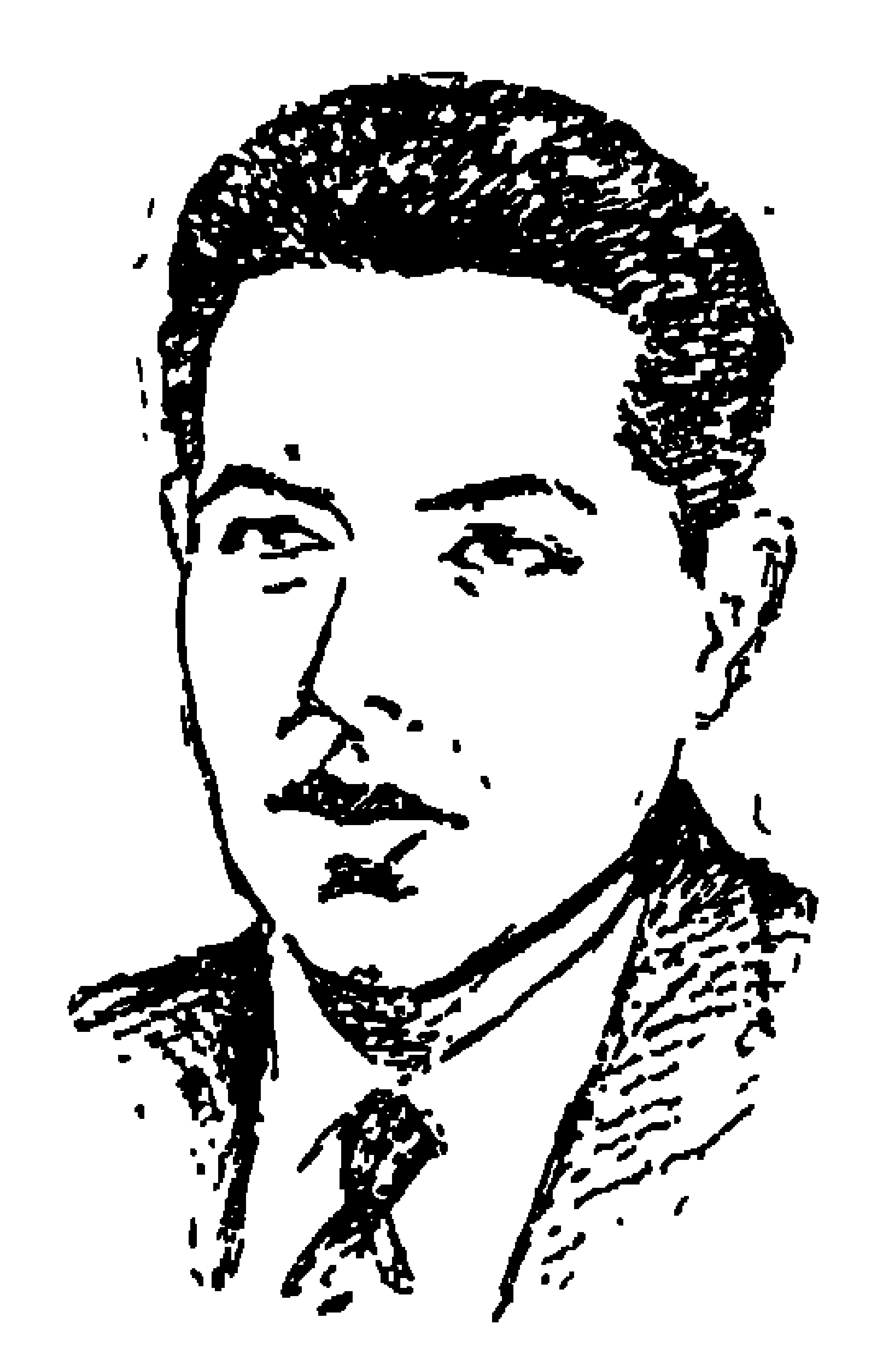


المؤلف



مصطفى محمود

- تخرج من كليـة الطب بالقصر العينى وتخصص فى الأمراض الصدرية .. ثم تفرغ للأدب .
- اشتغل بالـكتابة فى آخر ساعة وأخبار اليوم وروز اليوسف وصباح الخير .. وأصدر كتب الله والإنسان .. إبليس .. لغز الموت .. الأحلام .. أكل عيش .. عنبر ٧ .. شلة الأنس .. المستحيل .. الزلزال .
- متزوج وله طفلة .
- كتاباته صـدى مباشر لاحساسه بالحياة .. وفلسفته نابعة من التساؤل الذى تطرحه هذه الحياة فى مئات المشاكل الصغيرة حوله .
- لا يعتقد أن الحياة يمكن إخضاعها لمذهب أو نظرية .. فهى فوق كل المذاهب وأصل لها جميعا .

الغابة

مصطفى محمود

لوحة الغلاف وجميع رسوم الكتاب للرسام بهجت عثمان

هـــذا الكتاب

حينما بدأت أكتب عن رحلتي في الغابة كان في ذهني أن أروي ما شاهدت من انطباعات في سياق فني قصصي .. وفي الجزء الأول من الكتاب كان هذا هو الطابع الملحوظ في الأسلوب .. ولكن الموضوع مالبث أن تحول بين يدي بعدذلك إلى دراسة علمية .. أتقصى فيها المراجع وابحث في بطون الكتب .. وأحاول أن أجمع إلى شهادة الرؤيا وشهادة الحواس .. جهود الباحثين الذين عاشوا أعمارهم في هذه المجاهل البعيدة .

وكانت طبيعة الموضوع هي التي فرضت على هذا الأسلوب .. فقد انفتحت الغابة أمام عيني على عالم هائل .. رهيب .. تيه مجهول .. جديد كل الجدة .

وكان فضول المعرفة .. وعطش العلم .. والرغبة في الكشف عن هذا التيه والتعرف عليه .. أقوى من الرغبة في التجمل الفني .

وكان الاكتفاء باللمحة العابرة التي تمنحها لي سياحتي تقصيرا لا يليق بجلال الموضوع الذي أتناوله .

كنت تواقا إلى المعرفة .. وكنت أشعر أن قارئي أكثر مني رغبة في التعرف على هذه المجاهل .. منه في قضاء لحظة استرخاء لذيذة بين انطباعات فنية ناقصة .. ولهذا فضلت أن يكون كتابي دعوة إلى معرفة وعلم أكثر منه دعوة إلى متعه فقط .

مصطفى محمود

الطريق إلى الغابة



المدينة شيء خانق لزج ..
البيوت الضيقة كالدكاكين ..
والناس المتزاحمون فى طوابير
يتهامسون فى ريبة ويتبادلون
الخوف ويتناقلون الأكاذيب
ويتعاطون الاقراص المنومة ولا
يعرفون للنوم طعما... الأشجار
الحايقة .. الوجوه التى غطتها
المساحيق . . الأظافر التى
كساها الطلاء .. الشفاه التى
احتجبت خلف بسمات باردة
تقليدية لا تدل على شيء ...
اللغة التى أصبحت رخيصة
مهلهلة مبتذلة لكثرة ما دخلها من النفاق والتظرف والصنعة .. الصداقة
التى أصبحت حرفة .. العاطفة التى تحولت إلى طريقة للوصول ..

تهازو الفرص الذين انتشروا فى كل مكان يطنون كالذباب ..

البراءة التى ماتت

المرض المزمن الذى أصبح له ألف اسم واسم .. القرحة .: القولون..

الأملاح .. السكر .. الضغط .. الكبد .. الذبحة .. الارق .. القلق ..

وهو مرض واحد اسمه الحقيقى .. المدينة ..

كانت هذه الأفكار تراودنى وأنا على ارتفاع عشرة آلاف قدم

طائرا إلى تنجانيقا .. إلى أفريقيا السوداء ..

كم بدت لى بيضاء فى تلك اللحظة .. بيضاء القلب

كنت أشعر إنى مريض بداء مزمن اسمه « المدينة ».. داء عضال ..

إدمان لا شفاء منه على اصطناع كل شىء .. اصطناع الكلام .. اصطناع

السلوك .. اصطناع التهذيب ..

وكان أملى الوحيد فى الشفاء .. هو الغابة .. ارتمى فى حضنها ..

ولا أعود اصطنع شيئا .. لا أتكلم الكلمات المهذبة المنمقة التى اعتدتها

فى المدن .. ولا أحلق ذقنى .. ولا أتكلف الأدب .. وإنما أدع ذلك

الريفى الخشن الذى يسكننى يتكلم على سجيته كما يفعل وحش الغاب

حينما يعوى فى الصباح دون أن يبحث لعوائه عن ديباجة ..

يالها من حرية ..

ونظرت من فوق .. إلى المدن التي تضاءلت تحت قدمى .. كصفوف من العلب الصفيح .. وشعرت بنشوة تغمرنى والطائرة تقفز عبر الضباب إلى ذلك المارد الأسود .. وكأنى على ميعاد مع حبيبة تدلهت بها حبا ..

وشملتنى رجفة .. وأنا أسمع الطيار يقول ..

ـ نحن الآن فوق أديس أبابا .. باقى ساعتان على دار السلام .. ونظرت من النافذة إلى سلسلة الجبال الكالحة المغطاة هنا ... وهناك .. بمفارش من القطيفة ..

هكذا تبدو الغابة من فوق .. مجـــــرد وبر أخضر كوبر القطيفة يكسو الجبل ..

وسرحت ..

أى حياة تموج فى داخل هذا الوبر الذى يبدو ساكنا لا يختلج .

أى صراع دامى يجرى فى هذا الدغل الاشهب الذى يبدو كقطعة من القماش الموهير

وعادت الطائرة فانتزعتنى من خيالاتى لتلقى بى فى سحابة كثيفة من الضباب .. وغاب بصرى فى غمر من القطن المندوف.. لا يظهر منه أرض أو سماء ..

وارتفع صوت الطيار مرة أخرى ..

ـ نحن الآن فوق المحيط الهندى .. على خط الاستواء .. ودرجة الحرارة ٣٠ درجة .. والضغط معتدل .. وظروف الطيران ملائمة

ونظرت إلى المحيط .. كان يبدو كصفحة مرآة مصقولة .. وكانت الأمواج العالية الهائلة تبدو كنغبشة دجاج على سطحه .. امتداد أزرق فى كل اتجاه .. لا شطئان .. لا أول .. لا آخر .. منظر أصلع لا يتغير .. لون أزرق دسم ولكن سادة .. ليس فيه أى نقش .. ..

وبدأت أشعر بالبلادة .. والثقل .. والملل .. وخيل إلى أن الطائرة وقفت تماما .

ولا أدرى كم من الوقت مر على هذا الركود .. ولكنى تنبهت على أحشائى تهبط .. والطائرة تهبط مسرعة لتستقر وادعـــة فى مطار دار السلام ..

وأطلت وجوه سوداء باسمة تلبس الطرابيش .. وسمعت كلمة .. « كريبو مرحب » .. تتردد باللغة الوطنية لأهل البلاد ..

وعرفت بعد هذا أن اللغة « السواهيلى » أو السواحلى لأهالى تنجانيقا معظم ألفاظها عربية .. ودار السلام نفسها اسم عربى أطلقه العرب على

هذا الجزء من الساحل حينما كان بالنسبة للسفن العربية التى كانت تحمل التوابل عبر المحيط الهندى ملاذ أمان ودار سلام من العواصف البحرية الكاسحة ..

وأغلب أسماء السكان فى تنجانيقا أسماء عربية .. ومعظمهم مسلمون ومعظم الكلمات مألوفة للأذن .. فهم يسمون الصحون هناك صحانى .. والقهوة كاهاوا .. والماء ماجى .. والسمك سماكى .. والكبريت كبريتى .. والسفر سفارى

وكلمة سفارى لم تدخل اللغة «السواهيلى» وحدها .. ولكنها دخلت اللغة الإنجليزية أيضاً ..

لهذه الدرجة فرضت الشخصية العربيه نفسها .. وتركت آثارها ..

ولكن يبدو أن هذه الآثار لم تكن أكثر من آثار لغوية .. لأن كل شىء فى تنجانيقا ما عدا الأسماء والكلمات .. انجليزى ..

المبانى فى دار السلام انجليزية .. والمرور انجليزى « من على الشمال » والفنادق انجليزية .. والبنوك انجليزية .. والسلطة انجليزية .

والهنود سلطة ثانية فى تنجانيقا .. سلطة من نوع غير مباشر فكل التجارة والثروة الفعلية فى يد الهنود .. موظفو المكاتب وأصحاب المحلات

وأصحاب البارات هنود .. والأطباء هنود .. وأصحاب الشركات هنود .. حتى مكاتب التاكسى يديرها هنود .. ومكاتب البريد يديرها هنود .. ومكاتب التلغراف يديرها هنود ..

وأهالى البلاد الأصليون يشتغلون بأفقر المهن .. ومعظمهم يسكنون البنجالو والأكواخ .. وهم بسطاء طيبون يحبون الرقص والموسيقى ويغرقون همومهم فى « المونانسى » .. نوع من الخمر مصنوع من ابن جوز الهند ..

والجذام والملاريا والحمى الصفراء ومرض الفيل والجدرى ومرض النوم تحصد المواطنين من الأهالى الأصليين الذين يعيشون على أطراف المدينة ..

وذبابة تسى‌تسى التى تنقل مرض النوم . والبعوض الناقل للملاريا والحمى الصفراء ومرض الفيل موجود بكثرة فى الغابة ..

ولكن دار السلام خالية من الأوبئة تقريبا . . والانجليز تمكنوا من القضاء على ذباب تسى‌تسى هناك .

والمدينة نظيفة جدا .. ومبنية على طراز عصرى ..

والجو حار رطب لكن محتمل ..

أشبه بصيف الاسكندرية الخانق فى أغسطس ..

وحكاية الجو الاستوائى القاتل .. والرجــل الأبيض الذى يكافح ويستشهد من أجــل نشر النور والعرفان خرافة روجتها السينما .. ولا زالت تروجها .. والحقيقة أن الرجل الأبيض يعيش فى خط الاستواء منعما بالهواء المكيف و بالعربات الفاخرة والطائرات الخاصة .

وهم هناك يحكون حكاية ويليام سن الذى نزل تنجانيقا من ستين عاما .. ونصب سورا من الأسلاك الشائكة حول خمسمائة ميل من الأرض كتب عليها اسمه .

و بدأ ينقب فيها .. فعثر بالصدفة على منجم للماس .

وأصبح ويليام سن بين يوم وليلة وحدا من أغنى أغنياء العالم ..

وكان يهدى عقود الماس للملكة مارجريت بنصف مليون جنيه ...

وبلغت الضرائب التى فرضت عليه فى العهد العمالى ٨٠ ٪ .. ومع ذلك ظل مليونيرا .. وظل واحدا من أغنى أغنياء العالم ..

وفى خاتمة حياته أصيب بسرطان اللسان .

وظل يتجول فى بلدان العالم يستشير أكبر الأطباء والجراحين دون أمل ..

ومات بعد سنتين من المرض وحوله ١٦ طبيب عالمى ٠. فى فيلا بنيروبى ٠.

وهم يروون الحكاية و يمصمصون شفاهم فى عبرة قائلين ٠٠

وأين ذهب ويليام سن بكل ملايينه !!.. ولا شك أن حكاية المواطن التنجانيقى الفقير الذى تلتهمه الحمى الصفراء وتسلمه إلى القبر .. بلا عزاء .. و بلاملايين .. و بلا اسم يتناقله الرواه من بعده .. تلك الحكاية التى تحدث كل يوم ٠. أكثر أثارة .. وأكثر عبرة .. من حكاية المدعو ويليام سن الذى عاش ومات بعد أن استمتع بكل امكانياته .

الأحد ٣ فبراير

كانت الأوتيل تتحدث عن السرقة العجيبة التى حدثت فى الليل ..

قالت الزوجة أنها شاهدت اللص يقفز من النافذة إلى الغرفة وهو عار تماما لا يستر جسمه الأسود شىء .. وكان جسمه يلمع لمعانا غريبا كأنه مدهون بالشحم أو الزيت .. وفى يده سكين طويلة مشرعة ..

وفى لمح البصر كان يخطف سروالا من الشماعة ويلقى به من النافذه إلى شخص آخر ينتظره ..

وفى اللحظة التى استطاعت أن تستجمع شجاعتها وتلكز زوجها النائم إلى جوارها ويهب الاثنان ليلحقا باللص كان اللص قد قفز من النافذة إلى الشارع ..

كل ما استطاع أن يشهد به الرجل أنه أمسك بيد اللص فانزلقت من قبضته كأنها ذراع من هلام وأن يده تلوثت بمادة دهنية

وخرجت تنجانيقا ستاندارد بأعمدة طويلة مفصلة عن عصابات السود التى تهاجم المنازل .. وقطاع الطرق الذين يسلبون المارة نقودهم آخر الليل ..

وهز سكان الأوتيل رؤوسهم فهذه أشياء عادية تحدث كل يوم فى دار السلام ..

وكان الحديث الذى يدور فى قاعة الطعام صباح ذلك اليوم .. كله عن الحادث ..

المرأة الحمراء الوجه التي تشرب القهوة فى الركن كانت تقول لزوجها فى عصبية

ـ هؤلاء الزنوج .. انهم منتشرون فى كل مكان •• أنهم ينظرون إليك كلما أخرجت قطعة من النقود •• وكأنهم سيأ كلونك ••

وزوجها يهز ساقيه وينقر على المائدة ولا يجيب فتقول بعصبية أكثر ..

ـ هذه البلد .. لم يعد أحد يستطيع أن يمشى فيها آمنا . فيبتسم الزوج معلقا

ـ هذا أمتع ما فى هذه الرحلات .. أن يعيش الواحد فى خطر .. لا تنسى يا حبيبتى أنك فى أفريقيا .

فتقول وهى تنفخ ..

ـ أوف .. هذه همجية .. هذه بربرية .. أننا لم نقطع كل هذه الأميال لتسرق نقودنا .. هذه فوضى .. الا يوجد بوليس .. ألا توجد نيابة ..

واثنان من الأمريكان يبدو أنهما من رجال الأعمال .. يدخنان السيجار . ويقول أحدهما ضاحكا أنه يحسب حسابا لمثل هذه المفاجآت دائما .. وينام ونقوده فى جيبه .

ورجل بلجيكى قادم من الكونغو يتلفت حوله فى قلق .. ويقوم ويقعد .. ويذهب إلى التليفون •• ويسأل عن مدير الأوتيل ..

ويهتف فى اضطراب ••

ـ هذا فظيع •• لابد من حراسة •• لا أدرى ماذا أفعل لو أنى فقدت نقودى فى هذا البلد الغريب ••

وسائح انجليزى له ذقن كثة .. لا يفتأ يتخلل ذقنه بأصابعه .. ويقول فى اشمئزاز .

ـ هذا اللص يجب أن يشنق .. هذه فضيحة .

وحينما ذهبت لأدفع حساب الأوتيل كان المدير الهندى الوسيم الحليق الذى يلبس بدلة ترجال .. يتحدث فى ثورة عن اللص .. وعن زمام الأمن الذى أفلت من رجال البوليس .. وعن الإهمال .. والفوضى .. والإرهاب

وقدم لى فاتوره طويلة عريضة .. لاحظت أن فيها مائة شلن زياده ولما حاولت أن أستفسره . . قال فى أدب أنى تأخرت فى إخلاء الغرفة نصف ساعة . . وأن الليلة قيدت على حسابى .

أى ليلة . . أننا مازلنا فى أول النهار .. وهذه الوجبات الثلاث مقيدة على حسابى أيضا ! ؟ . . غير معقول . . إنى لم آكل منها لقمه . . كيف أدفع ثمن وجبات لم أذقها .

وعاد المدير يقول فى أدب جم ..

ـــ هذا هو النظام . أن الخدمة هنا كاملة .. وأجر الغرفة يحسب شاملا المبيت والطعام .

ـــ ولكنى لم أبت الليلة .. ولم أتناول طعاما . .

ولم يشفع لى عنده شفاعة . .

وأصر على أن يأخذ آخر شلن انجليزى فى جيبى ..

وحينما وضع النقود فى خزينته .. وقام يصافحنى .. عاد يتأسف بشدة ويعتذر عما حدث بالامس .. ومأفعله ذلك اللص ... المجرم .. الاثيم .. الوغد . . الـ . الـ

أى لص يقصد ! .

سارق السراويل الغلبان الذى دهن جسمه بالسمن وتسلق النافذة ليخطف جاكتة ؟ ! . .

جاكتة ! ؟ . .

وماذا يفعل كل هؤلاء اللصوص البيض الذين تسلقوا البلد من البر والبحر والجو وهجموا عليها من كل النوافذ ..

ماذا يفعلون طول اليوم . .

وكل يوم . .

الاثنين ٤ فبراير

كل شىء فى دار السلام يحرق الاعصاب .. التجارة فى كل شبر وفى كل خطوة .. وكل الناس فى دار السلام تجار بشدة ليس لديهم وقت لصداقة أو عاطفة . . جرابيع . . وأفاقون . . ومغامرون . . وافدون من كل مكان فى الأرض جريا وراء الصفقات .. والثروات .. لا أحد يتحرك

لوجه الله . . كل واحد يتحرك لمنفعه . . أو مشروع . . حتى المبشر خادم الله يخدم أشياء أخرى لا علاقة لها بالله

وشعرت انى أختنق .. وانى لو بقيت أكثر من ذلك سوف أنضم إلى صاحبي الاسود الذى يخطف الجاكتات ..

وركبت أول طائرة مغادرة دار السلام

وبعد ساعة وعشرين دقيقة كنت أنزل فى موشى . .

وأخذت عربة من المطار لاصعد فى ممرات جبلية . .

وكانت عيناى تتلفتان فى ذهول

الطريق كله غابات جبلية شجراء تتخللها مساقط مياه . . وحيضان زهور . . وجداول عذبة . . وهضاب حمراء نحاسية اللون . . . وتماريش خضر . . واستراحات هنا . . . . وهنـــاك . . وفنادق غاية فى الذوق والجمال والنظافة . . . والجو بارد فى جفاف واعتدال . . والنسمات تقرص الخدود وتدغدغها فى رفق منعش . .

مكان أشبه بسويسرا . .

الاشجار اقتلعت وشقت فى وسطها الطرق بالاسفلت . . وبنيت القصور والشاليهات والفيلات

جبل كليمنجارو . . شاهق عملاق . . يخرق السحاب . . تلمع رأسه

الصلعاء فى الشمس . . تغطيها رقائق الثلج كمنديل أبيض مطرز بالدانتيل . .

وتوقفت العربة عند مشرب أفريقى مبنى بالبامو . . وكان الوطنيون السكارى يجلسون على دكك خشبية و يتناولون البومبى (البوظة المصنوعة من الموز المخمر) بأكواب خشبية لها أيد طويلة كالملاعق . . ورائحة المكان كرائحة بوظة الحللى عندنا . .

وخلف المشرب كانت تصطف البراميل التى يخمر فيها الموز المهروس . وكان الفقر يبدو فى ملابس الوطنيين . . وفى ملابس الساقى والساقية . . وفى البراميل المكشوفة التى يتساقط فيها الذباب . .

وعلى بعد أمتار من المشرب كانت السوق الوطنية منصوبة .. وأسباط الموز معروضة للبيع على الأرض . . وثمار الاناناس .. والجبن . .والزبد .. وجرار اللبن . . وسلال البيض . . مصفوفة على ملاءة مفروشة .

وفى مكان آخر صحون وملاعق خشبية ودمى وتمائم لطرد العين . . وعقود من الخرز وغوايش وحلقان وأقمشة ملونة . .

وكانت جلود الاسود والنمور منشورة لتجف على الاشجار . .

وكانت أغلب البائعات الواقفات من النساء المتقدمات فى السن . .

وإلى جوار السوق كانت تبدو مشارف الفندق الفخم بحدائقه الغناء. وفيلاته الرشيقة . . ووابور الماء والكهرباء الخاص به . . وغلايات الماء الساخن . .

وعلى الاشجار كان اسم الفندق منحوتا فى حروف انجليزية كبيرة .. مرة أخرى ذلك التناقض الحاد الذى يستفز الاعصاب . .

وكان «لازارو» السائق يحدثنى طول الوقت فى انجليزيته المكسرة.

— أن مشكلتنا يا سيدى . . أن الأرض كلها فى يد الانجليز . . والتجارة كلها فى أيدى الهنود . . ونحن ضائعون بين الاثنين . . انك انك تتفرج الآن مبهوتا على جمال بلادنا ، وروعة بلادنا . . ونحن مثلك نتفرج . . ولا نملك أكثر من أن نتفرج . كل شىء فى أيدى الآخرين . . ونحن ننظر ونتحسر . . ولو أنك ذهبت إلى نيروبى لرأيت ما هو أجمل . انهم يبنون هناك العمارات من عشرين دورا ..

وحينما وصلت إلى الفندق . . كنت مازلت أفكر فى كلام «لازارو» وأتحسر أنا الآخر .

السبت ٩ فبراير

في الايام القليلة التي قضيتها متنقلا من دار السلام إلى موشى •• رأيت الجبل والوادى والمراعى الاستوائية الفسيحة والمدينة ••

والمدينة فى قمتها وجدتها فى نيروبى ••

ونيروبى مدينة كل شيء فيها مغسول مكنوس مصقول متألق . . وهى مخططة بالقلم والمسطرة على أحدث النظم العصرية . . الشوارع واسعة عريضة . . والميادين فسيحة . . وفى حى المور كل فيلا حولها فدان من الحدائق . . والانجليز لهم سرايات كسرايات عابدين والمنتزه .. وفى كل سراية حمام سباحة . . وحديقه حيوان . . وسينما . . وأكشاك من البامبو فوق فروع الشجر . . للاسترخاء والسرحان . ثراء فاجر يرهق الاعصاب . .

السيارات تزحم الشوارع وتزيد على عشرين ألف سيارة . .

الجراجات متعددة الادوار كما فى أمريكا لتستوعب هذا العدد الهائل من العربات . .

ودور سينما فى الخلاء تدخلها أنت وسيارتك . .

وكل العمارات من طراز حديث جدا ... مبنية بالبلاستيك والخشب الماهوجونى . . والحديد . . والمسلح . .

وفى المدينة كنائس ومساجد ومعابد للهنود السيخ . . وملاهى وكباريهات . . ومراقص ونوادى ليلية .. وبنات شقراوات وسمراوات من كل مكان فى العالم . . واليهود منتشرون فى كل شبر . . فى البلد . .

ومعظم البضائع عليها نجمة إسرائيل . . والبرتقال اليفاوى والبطيخ والخوخ يتدفق من تل أبيب إلى نيروبى كل يوم . .

وفى كينيا ٦٠ ألف انجليزى وتسعة ملايين من الوطنيين . .

والوطنيون الزنوج من قبائل الماساى . . والماو ماو . . يعيشون على أطراف المدن وفى الجبال . . فى أكواخ . .

وفى تجوالى بين دار السلام . . وموشى . . ونيروبى . . لم أجد الغابة . . وجدت التمدن الفاجر الباهر . . ولم أجد الغابة . .

لم أر الغابة الاستوائية الحقيقية إلا حينما ذهبت إلى فوهة بركان جرنجورو . .

والطريق إلى جرنجورو طريق شاق طويل . . وبأحسن وأسرع طرق المواصلات البرية يحتاج المسافر إلى ١٤ ساعة متواصلة من السفر

للذهاب إلى جرونجورو والاياب منها إلى موشى حيث يقطع مسافة تقرب من المسافة بين القاهرة وأسوان . .

وقالوا لى فى ذلك اليوم أن جرونجورو ترتفع بتسعة آلاف قدم عن مستوى البحر . . وانها باردة . . ولا بد أن تأخذ معك ملابس ثقيلة

وأخذت معى ما يلزم من الصوف . .

و بعد خمس ساعات فى طريق مستوى معبد بدأت أصعد الجبل فى عربة قوية من نوع الجيب . .

وكان الطريق خشنا والعربة تترنح . .

وكنت أنظر بين وقت وآخر لاجد نفسى على حافة جرف ينحدر إلى مهاوى لا آخر لها . .

وكانت الخضرة تزداد تكاثفا كلما أمعنت العربة صعودا فى الجبل .

و بعد ساعات من الخوف والتوتر توقفت العربة عند محطة فى منتصف الطريق هى « ليك مانيارا » . .

وليك مانيارا هى بحيرة عذبة يحتضنها الجبل ويقع على ضفتها فندق جميل ونظيف مبنى بالبامبو . . وفيه حمام سباحة وسينما و بار وغرفة طعام فاخرة وغرف نوم بالماء الساخن والبارد . .

وقضيت الليلة فى فندق ليك مانيارا أستمع إلى حديث خبير الحيوانات الامريكى الذى يشرف على الغابة ..

كان يتحدث عن حكمة الحيوان وعن النظام الدقيق السامى الذى يسود الطبيعة الحية ..

قال لى أنهم فطنوا منذ مدة إلى تكاثر التماسيح فى احدى المناطق الاستوائية فأباحوا صيدها للحد من تكاثرها الهائل الذى أصبح يهدد بقية الحيوانات البرمائية . .

وأقبل الصيادون يتنافسون فى القضاء على التماسيح . . وسلخها . . و بيع جلودها . .

وكانت النتيجة أن الوطنيين لم يجدوا غذاءهم الطبيعى من سمك التيلابيا فى ذلك العام . انقرض التيلابيا من البحيرات لأن سمك «القط» وهو العدو الطبيعى للتيلابيا أصبح طليقا بعد القضاء على التماسيح . .

وكانت التماسيح فى العادة تعيش على سمك « القط » وتلتهم إعداده الهائلة فتفسح السبيل للتيلابيا لتتكاثر وتتوالد ..

و بهذا كان يتوفر للانسان غذاء طبيعى شهى من التيلابيا كل سنة بما يكفيه وزيادة نتيجة لهذا التنظيم الدقيق للحيوانات بين آكل ومأكول

وفى الطبيعة دائما ذلك المنطق والنظام الذى يتدخل الإنسان فيفسده.

وحكاية سيد قشطة الذى تكاثر إلى حد بدأ يهدد معه المزروعات مثل آخر لهذا النظام الدقيق . فحينما صدرت الأوامر بالقضاء على سيد قشطة انقاذا للمزروعات لم يكن أحد يتصور أن هذه الأوامر نفسها سوف تكون ايذانا باغراق المزروعات وتلفها .. ولكن هذا هو ما حدث ..

وتفسيره بسيط .. فسيد قشطة الذى يمشى على الأرض الرخوة كما يمشى وابور الزلط كان يتكفل أثناء تنقلاته بشق روافد للبحيرات العذبة وفتح الأخاديد العميقة فيها . .

و بذلك كانت مياه الأمطار تجد دائما الروافد التى توزعها على الزرع

وحينما كف ذلك الحيوان عن التجول ... وسقطت أعداده قتلى برصاص الإنسان .. لم تعد الأخاديد تشق وأصبحت البحيرات مسدودة وفاضت مياه الأمطار وأغرقت كل شىء ..

كلام جميل . .

ولكن هل هو كلام صحيح . .

كنت أفكر فى هذه الفلسفة فى حكمة الطبيعة

هل الطبيعة تدبر كل شىء كأحسن ما يكون التدبير .. وليس فى

الامكان أبدع مما كان . . وأى تدخل من الإنسان فى الطبيعة افساد لحكمتها . .

بهذا المعنى تكون الميكروبات والحشرات والأمراض لها حكمة فهى فى حربها على الانسان تحقق توازناً ضرورياً فهى تبقى على الأصلح والأقوى وتزيل الأضعف . . وهى تحد من التكاثر الإنسانى الخطر الذى ينتج من الأفواه أكثر مما يمكن إطعامه . ولا يجب أن نتدخل فى هذه المذبحة الطبيعية .. باعلان الحرب على الميكروبات وشفاء الأمراض . . فهذه حماقة . . واخلال بحكمة الطبيعة العالية ..

وبهذا المنطق يجب أن نترك الانجليز يأكلون الأفريقيين . . والامريكان يأكلون الزنوج . . فهذا ناموس رفيع للطبيعة تحفظ به توازن الأجناس . .

كلام فارغ طبعاً . . فالطبيعة تخطىء كما يخطىء الإنسان . . وخطاياها أفدح . . وحيوانات الديناصور التى أنقرضت عن آخرها . . ونباتات السرخس التى لم يعد لها وجود . . كلها أخطاء سجلتها الطبيعة على نفسها فى حفرياتها وآثارها . .

والمجموعات الكوكبية التى تنفجر وتتبدد فى أرجاء الكون بين وقت

وآخر .. دليل آخر ، على أن الطبيعة ليست لها خطة محكمة .. وإن العطب والفساد والنقص فى لبابها ..

كنت أفكر فى هذا طول الليل ..

وفى الصباح وأنا أصعد الجبل فى العربة الجيب كنت مازلت أفكر فى التماسيح .. وفى الحياة .. وفى الموت .. وفى الانجليز ..

وكانت العربة تسير على حافة جبل شديد الارتفاع . . وكان سفح الجبل مغطى بأشجار كثيفة داكنة الخضرة .

وكان الغور السحيق الذى يهوى اليه البصر عن جانبى لا يبدو له قاع فقد سدت الأشجار الكثيفة المتشابكة قاعة .. وافترشه دغل طبيعى من نباتات وحشية ذات تلافيف متعانقة متشابكة فى معترك من الأغصان والأوراق والأزهار تتوه فيه العين فلا تتبين أرضاً .. وإنما خضرة متكاثفة على خضرة .

وشيئاً فشيئاً بدأت العربة تدخل فى منطقة جرنجورو التى تعج بالحيوانات الاستوائية .. أربعة آلاف صنف من الحيوان فى مائة ميل مربع من الأرض ..

وكانت الأشجار قد بدأت تماسك أذرعها من فوقنا لتصنع سقفا كثيفا

من التعاريش الخضراء تحجب الشمس أو تكاد .. ولا تدع منها إلا خيوطا فضية تشق ظلام الدكنة الخضراء وتلمع على الأوراق كفصوص الماس .

عتمة .. وأشباح أشجار باسقة متعانقة .. وزقزقة ملايين العصافير .. وعواء آلاف الذئاب والضباع النابحة وخوار ثيران وأبقار وحشية .. وصوت أوراق تتكسر .. وأشياء تزحف .. ورياح تصفر .. ورطوبة .. وضباب ينسدل على المنظر فيزيده رهبة .. ولكنه ضباب يتحرك .. سحابة تبتلع كل شيء ثم ماتلبث أن تعصف بها الريح فتتبدد وكأنها حلم صيف .. ثم تعود تهاويل الأشجار للظهور .. ثم يهبط المطر رذاذا خفيفا هامسا .. ثم سيلا دفاقا .. ثم طوفانا منهمرا يقعقع على أغصان البامبو المجوفة كأنما يعزف على طبول مشدودة .. ويلمع البرق .. ويزأر الرعد .. ثم يعود الهدوء ويخف السيل ويعود رذاذا .. ثم ينقطع وتلمع الشمس على هامات الشجر .. وتتلألأ فصوص الماس

وتنقنق قرود لا عد لها

إنها الغابة

ولا يمكن أن توصف الغابة

أن أى وصف يزرى بجلالها

إن أشجارها لا تشبه مانرى من أشجار فى الشوارع والحدائق

أشجارها سوامق .. فيها عنفوان .. وشموخ .. وزعامة

وأزهارها محتقنة دموية

وأوراقها ريانة

وأمطارها عاتية مكتسحة

وضبابها كثيف مترا كم جياش

أنها مثل نهد مراهق نزق ضيق بالثوب الذى يضمه .. نهر متمرد يكسر حواجزه وجسوره . .

لا . . لا يوجد وصف يحيط بها . . فهى ليست مجرد شكل .. أو صورة تشاهد . . و إنما هى إحساس . . مذاق .. طعم .. رجفة فى القلب . .

وقد شعرت بتلك الرجفة الغامضة وأنا اتنقل بين الشجر واتسمع ذلك الخرير ينبعث من مئات الجداول والشلالات الصغيرة التى يعربد فيها الماء والثلج منحدرا من القمم

* * *

وكان لابد من استبدال العربة الجيب بعربة أقوى منها عند اقترابنا من فوهة بركان جرونجورو فالطريق أصبح شديد التعرج.. شديد الصعود شديد الهبوط .. وكأنه خط كاريكاتورى كثير العبث

وفى خلال أقل من نصف ميل شعرت من كثرة الخضخضة أن أحشائى ساخت وأن محتويات أمعائى قد اندلقت على بعضها

وكانت عجلات العربة تكركر كأنها تحرث التربة وتقلبها

وكانت العربة تهبط السفح فى انحدار حاد إلى فوهة جرونجورو.

وهى فوهة مساحتها حول مائة ميل مربع .. أشبه بميدان هائل مسور بسلسلة من الجبال ترتفع آلاف الأقدام .

والحيوانات متروكه فى هذه المساحة ترعى وتتكاثر .. وتفترس بعضها فى حياة طبيعية . . جواميس وحشية وثيران وذئاب وأبناء آوى وضباع ونمور وأسود وفيلة وقرود وغزلان ووعول وحمران مخططه ونسور وصقور.

ورعاة هائمون من قبائل الماساى والما كامبا والماو ماو يمشون انصاف عراه ويبنون أكواخهم وسط هذا المسرح الوحشى . ويسيرون آمنين كأنهم يسيرون فى بيتهم .

الماو .. ماو

حياة الغابة على حقيقتها و بساطتها تجدها عند هذه القبائل البدائية التى تسكن أدغال تنجانيقا وكينيا .. عند الماساى .. الما كامبا .. والماو .. ماو

وهى شىء آخر غير حياة طرزان .. ورو بنصن كروزو .. والسندباد .. غابة الحقيقة .. غير غابات الشعراء . وهواة المغامرات .. ومحترفى الصيد ..

إنها بالنسبة للصياد والشاعر فسحة يوم .. تغيير جو .. ولكنها بالنسبة لمن يعيش فيها .. قدر .. ومصير .. ومجموعة من المؤثرات تعمل على تشكيل حياته وتفكيره كما تعمل يد النحات فى الصلصال ..

إنها مناخ اجتماعى وليست خطوط طول وعرض ..

وأقصر طريق يوصل إلى الغابة هــو الطريق الذى يسير عبر الخط الإنسانى .. لا الخط الحديدى .. الخط الذى يقف بالقبائل والمجموعات البشرية .. لا بالمراكز .. والمحطات .. فالمحطات الحقيقية هى الحقب التاريخية .. ونقط انتقال الإنسان من مرحلة إلى مرحلة

البداية هنا تكون من الأول ..

وسوف أبدأ من الأول .. فاخلع عنى ثوب السائح .. والتمس بعض

الحقائق العلمية عن هـــذه القبائل •• عن أكبرها•• وأشهرها ••
الماو ماو ••

* * *

والماو ماو من أكبر القبائل التى تعيش فى الغـابات الاستوائية ••
وتعدادها حول مليون يعيشون منتشرون فى هضبة كينيا •• وأسمها الأصلى
الـكيكويو أو حسب اللهجة المحلية ••• الجيكويو ••

وهم يحكون عن نشأتها حكاية تشبه حكاية آدم ••

فى البداية كانت الأرض خراب والدنيا خاوية ثم أراد الله أن يعمر
الـكون فخلق جيكويو وأسكنه فى أجمل بقعة على هضبة كيرنياجا حيث
تنمو أشجار التين طول العام وتكتسى الأرض بالخضرة وتتدلى عناقيد
الفاكهة دانية شهية ••

و بعث له بالحورية الجميلة •• مومبى ••• لتكون شريكة حياته فى
هذه الجنة ••

وتزوج جيكويو مومبى وعاش الاثنان فى سعادة وهناء •• وأنجبا
تسع بنات ••

وامتد بهما العمر .. وتعاقبت السنون .. دون أن ينجبا ولداً واحداً ..

وغرق جيكويو فى الحزن .. وأغلق على نفسه باب كوخه .. وركع لموجايى (الله فى لغة الماو ماو) ورفع ذراعيه فى ضراعة متوسلا إليه أن يهبه إبنا وانهمرت دموعه ... فاستجاب له « موجايى » وأمره بأن يذبح شاه ويقدمها قربانا يروى بدمها شجرة التين المقدسة ..

وفعل جيكويو ما أمره به ربه .. وحينما انتهى من طقوس القربان أمره ربه أن ينصرف هو وبناته إلى الكوخ ثم يعود إلى الشجرة بعدقليل فيجد أمنيته قد تحققت ..

وكان « موجايى » صادقاً فى وعـده ... فحينما عاد جيكويو إلى الشجرة وجد عندها تسعة من الشبان .. كل منهم مثل القمر جمالا وبهاء ..

وهكذا وجد جيكويو لبناته التسعة أزواجاً تسعة .. ورزق بذرية وفيرة نشأت منها عشائر الجيكويو التسعة التى انحدرت منها قبائل الماو ماو المعروفة الآن ..

وتقول الأسطورة أن القبيلة كان اسمها فى البداية .. قبيلة مومبى . تكريما للأم التى حبلت فيها .

ولـكن هذا التكريم كانت نتيجته طغيان نساء القبيلة .

فقد اعتبرت كل امرأة نفسها أنها الأصل فى القبيلة . . وأنها هى التى أنجبت رجالها .. وأقامت من نفسها حاكمة .. واتخذت لنفسها عديدا من الأزواج تتحكم فيهم وتسوقهم إلى العمل فى الحقول .

وثار الرجال .. وجمعوا كلمتهم ..

وذات يوم .. بينما كان النساء كلهن حبالى ضعيفات غير قادرات على الحركة .. قلب الرجال نظام الحكم واستولوا على السلطة ..

ومن ذلك اليوم تغير اسم القبيلة من أبناء مومبى إلى أبناء الجيكويو ولم يبق من حكم النساء القديم إلا أثر رمزى .. هو أسماء العشائر التسعة التى ظلت تتسمى بأسماء بنات الجيكويو التسع ..

وانتهى نظام تعدد الأزواج .. ليبدأ نظام تعدد الزوجات ..

ولـكن المرأة ظلت موضع احترام ومهابة . . . والأم ظلت لهـا قداسة ..

وإلى الآن ما زالت جريمة سب الأم عند الماو ماو جريمة لا تغتفر .

والأم التى تطعن فى السن عندهم تصبح لها مكانة روحية عظيمة .. وتتزعم المحافل الدينية .. والزوج يفسح الطريق لحماته عندما تمر به ..



ويقف لها لتجلس .. ولا يعرى جسده أمامها .. وإذا حدث والتقى بها صدفة وهو يستحم فى النهر . . فإن عليه أن يذبح لهـــا شاه قربانا واعتذارا . .

ولـكن السلطات الفعلية انتقلت الآن كلها إلى يد الرجل . .

فالأب هو فى العـــادة سيد العائلة وحاكمها والمالك الوحيد لـكل ما تنتج من ثمار ومحصول .. وهو أيضاً صاحب الأرض .. وصاحب الـكلمة التى لا ترد .. وكل أولاده وبناته يعاملونه فى احترام وتقديس ..

والابن الأكبر تخاطبه العائلة بألقاب التعظيم.. والرجل الذى لا ينجب ذرية من الأولاد يحزن كثيراً لأنه يعلم أن اسمه سوف ينقرض . . وأن روحه لن تجد بعد موته سكنا ترفرف عليه ولا أبناء ترعاهم .. وأنها ستظل ضائعة هائمة .

وملـكية الأرض كانت فى البداية لمن يفلحها . . ولمن يبنى فيهـا كوخه .. وكان المالك يمنح كل زوجة يتزوجها قطعة من أرضه لتكون حديقتها الخاصة تزرعها وتجنى ثمارها هى وأولادها . .

وكانت الأرض تنتقل بمـوت المالك إلى الأولاد الذكور . . حيث يتزوج كل منهم ويوزع نصيبه على زوجاته .. وظلت الأرض تتوزعها

الأيدى . . حتى ضاقت ولم يعد هناك حل سوى أن تهاجر القبيلة باحثة عن أراضى جديدة . .

وهكذا انتشرت الجيكويو جنوبا لتلتقى بقبيلة الجومبا . . وهى قبيلة أفرادها قصار أشداء يعيشون على الصيد . . وتقول الأساطير أنهم كانوا يعيشون تحت الأرض . . ويحفرون بيوتهم فى خنادق ومسارب كما يفعل النمل . . وأنهم هربوا فى جوف الأرض واختفوا حينما انتشر بينهم الجيكويو . ومن ذلك اليوم لم يظهر لهم أثر . .

والحقيقة أن الجيكويو فى انتشارهم جنوبا تزاوجوا مع أفراد القبائل التى كانت تعيش فى تلك الأمكنة وهى قبائل تعيش فعلا على الصيد . . وبهذا تلاشت شخصية هذه القبائل فى شخصية الجيكويو القوية الوافدة من الشمال ولم تختف فى شقوق الأرض كما تقول الأساطير .

وكان الجيكويو يشترون الأرض من هذه القبائل بالمقايضة فى مقابل محاصيل الحبوب والموز وقصب السكر والفاكهة .

وكانت التجارة حرة . .

ولم يكن نظام العملة النقدية معروفا حتى دخل الإنجليز فادخلوا معهم

نظام النقد وقيدوا التجارة وفرضوا على كل من يرغب فى التجارة أن يستخرج رخصة ..

ولم يكن تأجير الأرض للزراعة معروفا .. وكان المتبع أن يهب المالك أرضه لمن يشاء من أصدقائه ليزرعها بلا مقابل .. أو مقابل هدية رمزية من البيرة كعنوان حب ووفاء .

و بالإضافة للاراضى الخاصة التى يملكها الأفراد . كانت هنالك الأراضى العامة التى يستغلها كافة أفراد القبيلة كالمراعى .. والبحيرات . والآبار .. وساحات الرقص والإجتماعات .. والملاعب .. والغابات التى تقطع منها الاشجار لبناء البيوت .

وعمليات بيع وشراء الأرض كانت لها طقوس ومراسيم .. فالشارى كان يتقدم عادة إلى المالك الذى يريد أن يشترى منه قطعة الارض ومعه هدية من البيرة .. ثم يبدأ الاثنان يشربان فى مرح .. و يقول الشارى: يا جارى العزيز أحب أن أعبر لك عن إعجابى بقطعه الارض الفاتنة التى تملكها .. وأود أن تكون من نصيبى ..

فيرد عليه الجار بنفس الأدب والدبلوماسية ثم يبدأ الاتفاق على الثمن وهوعادة رءوس من الأغنام . ثم يجتمع شهود من القربة و يحلف كل من الطرفين اليمين بأنه ارتضى البيع بالثمن المقدم .. وتذبح شاه وتنثر

محتويات أمعائها على قطعة الأرض .. وتزرع أشجار الورد على حدودها بينما تغنى الجماعة وتنشد أناشيد فيها تقديس للارض وخصوبتها .. ويردد المالك الجديد اللعنات على كل من تسول له نفسه باقتلاع شجراته وتخريب حدوده .

ثم تقطع من جلد الشاه شريحتان يلف بهما كل من الطرفين معصمه علامة لوحـــدة الأرض بينهما ثم تقام وليمة تدار فيها أكواب البيره .

وتوزيع العمل فى الماو ماو يقوم على أساس اشتراك الرجل والمرأه فى جميع الاعمال .

النساء يقمن بطهى الطعام وتخمير البيره وطحن الحبوب وغسل الاوانى وتنظيف الكوخ وكنس الاراضى من حوله . وهن كذلك يجمعن الخشب من الغابة للوقود ويبذرن البذور ويطهرن الزرع من الاعشاب ويجمعن المحصول ويحملنه لبيعه فى السوق .. وهن يصنعن الفخار .. ويغزلن السلال من الخيزران .. وهن يشتركن فى بناء الاكواخ فيصنعن السقوف من القش ويدهكن الجدران بالروث وبالطين .. وينسجن الثياب من جلود الحيوان .

والثياب الأوربية بدأت تغزو الجيكويو لكن النساء مازلن محافظات يفضلن ثيابهن من الجلود ويعتبرن الملابس الأوروبية وسيلة لستر شوهات

الجسم .. وكثيراً ما تطلب أم العروس أن يتعرى العريس أمام شهود إذا كان يلبس الملابس الافرنجية حتى تضمن أنه ليس مشوها :

والرجال بدورهم يقومون بالأعمال الثقيلة فيعزقون الارض و يدكون الطرقات و يشقون الاخوار و يقيمون الكبارى و يحرسون الزراعة ليلا و يشتغلون بالصيد و بالحداده ونحت الخشب ورعى الماشية .. وهم يذبحون الحيوانات و يسلخونها و يدبغون جلودها .

والاولاد يحلبون الماشية ..

والاطفال يتدربون على العمل فى حدائق صغيره يزرعونها فى أوقات لهوهم ..

والجيكويو يزرعون الموز وقصب السكر والذره والشعير والفول والبطاطه والبطاطس ويربون النحل ويرعون الماشية ويعتمدون على الصيد فى الحصول على طعامهم من اللحم وهم فى السوق يبادلون سلة الحبوب فى مقابل سكين صغيره .. أو أربعة سلال من الحبوب فى مقابل عنزه واحده أو بقره فى مقابل عشره خراف .. وهم يعتبرون الاغنام نوعا من العملة النقدية فيدفعونها فى الزواج و يشترون بها ما يحتاجون إليه من السهام والحراب .. و يدفعونها ديه إذا حكمت محكمة القبيلة بديه .. و يقدمونها قرابين .. و يأكلون لحمها .. و يلبسون فرائها .

والأبقار عنوان ترف عند الجيكويو . . لا يذبحونها . . ولا يتخذون لحمها طعاماً . .

وهم فى العادة لا يعتمدون على لبنها كثيراً فى غذائهم . . وهم يفضلون ذبح الثيران فى الولائم . . ومع هـذا فالأغنياء يحرصون على اقتناء الأبقار كعنوان للترف والغنى . .

والجيكويو عرفوا صناعة الحديد واستخلاصه من خاماته من عصور بعيدة . وهم يحكـــون فى الأساطير أن الحيوانات كانت تذبح وتسلخ فى العصور القديمة بسكاكين خشبية . . وأنها كانت تتألم . . ولهذا قررت الفرار من الأكواخ والاحتماء بالغابة هرباً من هذه الطريقة الوحشية فى الذبح . . ومن هذا اليوم وهى تنتشر فى الأحراش كحيوانات مفترسة بعد أن كانت حيوانات مستأنسة اليفة . .

وحينما توسلوا إلى الرب أن يلهمهم طريقـة فى الذبح تريح الحيوان ألهمهم استخلاص الحديد وصناعة الأسلحة . .

والحدادون من الجيكويو يجلبون الخام ويطحنونه ويجففونه فى الشمس ثم يشعلون الفحم ويضعون فوقه الخام ثم يغطونه بطبقة أخرى من الفحم ويرشون البيرة على الخليط وهم يرتلون طقوساً دينية وتعاويذ . . ثم ينفخون فى الـكور . . . ويوالون النفخ من الفجر إلى الغروب حتى يتم اختزال المعدن

و ينصهر و يرسب فى قاع الفرن على شكل أقراص مستديرة يطرقونها إلى صفائح يصنعون منها السكاكين ورءوس الحراب وأسنة السهام . .

والماو ماو ينظرون إلى الحدادين نظرتهم إلى السحرة والكهان والحكماء و يعاملونهم فى رهبة وتقديس . .

وفن البناء عند الماو ماو له طقوس . . وهو عندهم عمل جماعى يشترك فيه الكل بلا أجر . . فينتشرون فى الغابة رجالا ونساء يقطعون الأشجار و يجمعون أعواد القش . . وفى اليوم المعين للبناء يقيم صاحب الكوخ وليمة لجيرانه وأصدقائه . ثم يبدأ العمل فى الصباح برش اللبن والبيرة وتلاوة الصلوات فى المكان ... ثم يقوم النسوة بكنس الأرض وتمهيدها . . ثم ترسم دائرة كبيرة ترشق فى محيطها دعامات من فروع الشجر يرسى حولها السقف ثم يبدأ النساء فى دهك الجدار بالطين والروث وتغطية السقف بأعواد القش وفى هذه الأثناء يتبادل الرجال والنساء الأغانى المرحة . . فيقول الرجال وهم يغنون . .

أنتن يا نساء كسالى كالسلاحف . . لقد انتهينا من بناء هيكل الكوخ . . وأنتن تسرن فى تراخ كالحبالى تحملن القش

فيرد النساء وهن ينشدن .

وماذا يفيد هيكل من فروع الأشجار فى حماية المسكن من الأمطار.. أننا نحن اللائى نجعل من هذا السكوخ كوخاً بهذا القش الجميل ننسج به البناء كما تنسج البلابل أعشاشها . . أما أنتم يا رجال فلا نأخذ منكم إلا الثرثرة ..

ويظل الرجال والنساء يتداولون هذا الغناء المرح حتى ينتهى البناء قبل الغروب فيعمد أكبر الموجودين إلى جرة الشراب يصب منها البيرة فى قرن بقره ثم يمسك القرن بيديه الاثنتين ويتلو صلاة لإجداده يطلب فيها البركة والسلام .. ثم يشعل اثنان من الأطفال الموقد فى وسط السكوخ .. وتنتهى بذلك مراسيم البناء

ومن تقاليد السكيكويو ألا تمارس المرأة الاتصال بزوجها جنسيا إلا فى داخل كوخها .. وفى الليل ..

وإذا تم الاتصال بالنهار فإنه يكون حراماً .. وإذا تم والطعام يطهى على النار فإن الطعام لا يكون صالحاً للأكل ويعتبر ملوثاً ..

وطهور البنات والأولاد فى الجيكويو يتم بين ١٢ و ١٦ سنة ويعتبره الجيكويو حادثا هاما يقيمون له الحفلات والطقوس والمراسيم وينشدون الأناشيد الدينية ويرقصون ويغنون ..

وتقوم بإجراء الطهور امرأة عجوز مختصة بهذه الجراحة .. تلبس زياً كرنفالياً مرعباً وتطلى وجهها بمادة بيضاء كالسبيداج ..

ويبقى الأولاد والبنات فى كوخ العجوز مدة تتراوح بين ٧ إلى ١٢ يوما يعالجون فيها بمنقوع أعشاب خاصة قابضة مطهرة .. حتى تلتئم جراحهم ثم ينقلون إلى بيوتهم حيث يعيشون ثلاث شهور فى غناء ورقص ومرح ..

وتقام فى ختام المدة حفلة تمثيلية تمثل فيها الأمهات أدوار الولادة والطلق وتذبح شاة وتصنع من أمعائها حبال يوثق بها الأولاد والبنات ثم تقطع رمزاً للحبل السرى الذى قطع إيذانا بميلاد الجيل الجديد من البالغين الذى تم نضجه وميلاده ..

ثم تقام حفلة راقصة يلبس فيها الأولاد لباس الحرب ويطلون أجسامهم بالطلاء الأحمر ويرقصون بالحراب . وتلبس البنات الخرز والجلود المطرزة الأنيقة ويرقصن .. وتنتهى بذلك طقوس الطهور ..

ومن تقاليد الجيكويو السماح بالعلاقات الجنسية بين الأولاد والبنات بعد الطهور .. ولكنها لا تكون علاقة جنسية كاملة .. وإنما لون من الغزل الجنسى يحتضن فيه الولد البنت ويلهو معها كما يشاء دون أن يفقدها بكارتها .. ويسمونه عندهم « أومبانى نا جويكو » .

وهذه الممارسة لها طقوس خاصة ولها احترام دينى .. فالأولاد والبنات يجتمعون فى أكواخ خاصة تعد لهذا اللون من الغرام .. وكل حبيبة تجلب لحبيبها الفواكه واللحم والبيرة .. ويقضون نهارهم فى الرقص والغناء والشرب وإذا كان عدد الأولاد أكثر من عدد البنات فإن البنات يخترن ما يوافق مزاجهن من الأولاد ..

والعادة أن يقوم أحد الأولاد وهو يتثاءب قائلا .. أنا ذاهب لأتمدد .. ثم يدخل إلى الفراش فتتبعه حبيبته حيث يخلع عاريا وتخلع هى قميصها وتحتفظ بقطعة من الثياب حول نصفها الأسفل .. ثم يندمج الاثنان فى النجوى والغزل والعناق والعبث .. حتى تخور قواهما فيناما نوما عميقا ..

وتبادل القبلات بالشفاة غير معروف عند الجيكويو ..

ويبدو أن هذه الممارسة هى الطريقة التى يقبلون بعضهم بعضاء بدلا من الاتصال بالشفاه ..

« وأومبانى ناجويكو » لها حدود لا يسمح بتجاوزها .. وحينما يحدث الاتصال الجنسى الكامل والحمل نتيجة « الجويكو » فإن الرجل يعاقب بدفع دية من تسع خراف وتعاقب البنت بعمل وليمة كاملة لبنات جنسها .. وتكون محل نقد شديد من الجميع .. ولا يسمح للرجل بعد هذا بالجويكو إلا بعد أن يقوم بطقوس التوبة والتطهر ..

ولا يعتبر الإبن الناتج من هذه العملية ابن حرام ٠٠ وإنما يستقبل كأى إبن من أبناء العائلة ٠٠

وكثيراً ما تحدث مخالفات الجويكو دون أن تكتشف لأن الإثنان تعجبهما — الحكاية الجديدة — فيستمرا فيها ٠٠ وتمر المشكلة بسلام طالما أن الإثنين يأخذان حذرهما من الحمل ٠٠

والروميو الذى يشتهر بين البنات إسمه عندهم ٠٠ « كيومبانى » ٠٠

وأحياناً تبلغ من جاذبية الكيومبانى أن تكون له أربعين حبيبة فى وقت واحد ٠٠

ومن المعتاد أن يمارس الأولاد العادة السرية قبل الطهور ٠٠ والكبار ينظرون إلى هذه المسألة على أنها شىء طبيعى ٠٠ ونوع من التأهب والاستعداد للممارسة الجنسية فيما بعد ٠٠

ومن المعتاد أن يتبارى الأولاد فى إظهار كفايتهم فى هذه العادة ويكون ذلك فى الخلاء بعيداً عن البيوت ٠٠

أما بعد الطهور ٠٠ فإن ممارسة هذه العادة تعتبر مثار للسخرية إذ لا يعود هناك داع ٠٠ ففى إمكان الجميع أن يمارسوا أو مبانى نا جويكو » ٠٠

والشذوذ الجنسى غير معروف فى الجيكويو .. واتخاذ أى وضع غير طبيعى فى الاتصال الجنسى بين الرجل والمرأة جريمة يحرمها الدين تحريماً شديداً ..

والاتصال الجنسى محرم بين أبناء البطن الواحدة .. والإخوة والأخوات والعمات والخالات .. لا يجوز لهن التزاوج أو الاتصال الجنسى ..

* * *

وبالرغم من هذه الحريات الجنسية الواسعة بين أفراد الماو ماو .. هناك اقبال شديد على الزواج .. والواحد منهم لا يكتفى بزوجة واحدة . بل يتزوج عليها ثانية وثالثة ورابعة إلى الخمسين والستين زوجة ..

والرجل عندهم لا يعتبر رجلا ولا يحظى بالاحترام إلا إذا تزوج وابتنى كوخا وأنجب ذرية ..

والزواج عندهم له أهمية دينية وروحية فالأرواح لا تستقر بعد الموت ولا تسكن إلا إذا وجدت منزلا تنزل فيه وذرية وفيرة ترعاها وتمنحها بركتها .. وبدون الذرية تفقد الروح صلتها بالأرض وتتشرد فى الظلمات لا يربطها بالعالم اهتمام ولا عاطفة .

والزواج يبدأ عادة بالتعارف .. وقد تنشأ علاقة طويلة ..

وحينما يأنس الرجل فى نفسه الحب للفتاة التى اختارها فهو فى العادة لا يذهب لخطبتها وإنما يبعث أصدقاءه ..

ويذهب أصدقاؤه إلى بيت العروس ومعهم هدية من البيرة. ثم يقول أحدهم في تلميح .. ما رأى ست البيت الجميلة في أن تضم إلى كوخها رجلا مشردا ليس له بيت .. فتسأل الفتاة في خجل .. ومن يكون هذا الرجل .

فيقول لها اسم صاحبه .. فإذا وافقت فانها تمهله لزيارة أخرى وأخرى من باب الدلال .. ثم تقول له في الزيارة الثالثة أو الرابعة أنها موافقة .. ولكن الأمر بيد أبيها .. وإذا لم تكن موافقة فانها تقول له من البداية أنه ليس في كوخها مكانا لأحد .

وفي حالة الموافقة يبعث العريس بأبيه وأمه إلى بيت العروس ومعهم هدية أخرى من البيرة .. وفي جلسة عائلية يشرب الجميع البيرة . . وتأخذ العروس رشفة علامة القبول .

ويحتفل العريس بالمناسبة ويذبح شاه ويدعو أفراد العائلتين ويسكر الجميع ويأكلون ويغنون ويرقصون .

ثم يبدأ العريس في دفع المهر على أقساط من رؤوس الغنم.. حتى تبلغ الدفعات التي قدمها من ثلاثين إلى خمسين رأسا .. فيحدد يوم لعقد الزواج.

وفي اليوم المعلوم يذبح ثور ويدعى الجيران وتدار الخمر ويغنى الجميع وينشدون أناشيد الفرح وتتلقى العروس الهدايا من أقرانها ..

و يبدأ العريس فى بناء الكوخ وتأسيسه ..

وتنتقل العروس من بيت أبيها إلى كوخ عريسها ، والعادة أن يكون هذا الانتقال بطريقة مسرحية .. فتتسلل صديقات العروس فى الفجر و يخطفن العروس و يأخذونها عنوة إلى بيت عريسها.. مكتوفة اليدين والرجلين .. وهى تصرخ وتولول هاتفة بطريقة تمثيلية .. لا أريد هذا الرجل .. لن أذهب إلى رجل لا أحبه .. الزواج لا يكون بالاكراه .. لن أترك بيت أبى .. لن أترك أمى .. أين أنت يا أمى .. أين أنت يا أبى .. أنقذونى .. الحقونى .. يا ناس ..

و يستغرق الجميع فى الضحك .. بينما العروس ماضية فى الصراخ .. وصاحباتها ممسكات بها لا يتركنها .. حتى يصل الموكب بيت العريس .. فيلقين بها بين أحضانه .

و بينما يهلل الجميع بالأغانى المرحة تنطوى العروس فى غرفتها تغنى الأغانى الحزينة باكية على حياتها القديمة وعلى فراق أهلها وخلانها .

وتظل تردد هذه الاغانى سبعة أيام .. وفى اليوم الثامن تخرج لتزور بيت أبيها وتعود محملة بالهدايا .. وأحيانا تعود ومعها بقره ..

و بهذا تنتهى مراسيم الزواج .. و يبدأ الزوجان حياتهما العادية ..

ومن المعتاد أن تقول الزوجة لزوجها بعد مرور سنة و بعد أن تكون قد رزقت بطفلها الأول ..

يازوجي العزيز.. أننا نعيش في بحبوحة من الرزق .. ولنا طفل جميل و بيت واسع وأرض كثيرة .. ألا ترى أنه قد آن الأوان لكي تتزوج وتضم إلى بيتنا زوجة ثانية . .

يا زوجي العزيز.. إني كما ترى مشغولة بالطفل . . ولا أجد الوقت ولا القوة لأذهب إلى الغابة لأجمع لك الأخشاب وأجلب لك الماء.. وأنت في حاجة لزوجة ثانية تخدمك وترعى ضيوفك . . وأنت بحمد الله صحيح البدن موفور العافية . . وهذا هو الوقت لتسعد بزوجة أخرى تجلب لك أطفالا آخرين يملؤون علينا البيت بالمرح ..والمثل يقول .. إن النهر الجاري لا ينتظر عطشان . . وقد آن الأوان لتكون لي رفيقة أسعد بها . . ما رأيك في فلانة بنت فلان . أنها جميلة وطيبة وجذابة .. ما رأيك في أن تعمل على كسب قلبها .. و إذا كان المهر يعوزك فإن أقاربي في سعة من الرزق و يمكنهم مساعدتك . . يا زوجتي العزيز لا تخيب رجائي ..

وهكذا يذهب الرجل ليخطب زوجة ثانية ثم زوجة ثالثة ورابعة بنفس الطريقة . . و إذا كان غنيا وقادراً فان زوجاته يتضاعفن إلى خمسين زوجة وأكثر .

ولا توجد غيره بين الزوجات .. وكل زوجة تنفرد بكوخها الخاص وقطعة الأرض التى تزرعها والأغنام التى تربيها .. والزوج يخصص لكل زوجة يوما أو يومين فى الشهر .

والزوج أيضاً لا يغار على زوجته .. وفى العرف المتبع أن الضيف الذى ينزل فى بيت الجيكويو يكون له الحق فى الاستمتاع بزوجة من زوجاته .. وإذا كان الضيوف كثيرون فان كل زوجة تختار من يميل إليه قلبها من الضيوف لتدعوه إلى كوخها وتقضى الليل بين أحضانه . .

والأطفال الذين ينتجون من هذه العلاقة يكونون من حق الزوج . . والزوج لا يلتفت إلى هذه المسائل طالما أنها تحدث علانية أمام عينه و بعلمه . . أما إذا قابلت الزوجة فى كوخها رجلا فى الخفاء فانها تكون مخطئة خطأ كبيراً . . وكذلك الرجل الذى يعاشرها فى الخفاء . . وعلى الإثنين أن يدفعا غرامة عدداً من الأغنام .. وأحيانا يكتفى الزوج بأن يضرب زوجته علقة ولكنه لا يطلقها . .

وسبب الطلاق الوحيد المشروع هو العقم .. وفى هذه الحالة يدعو الزوج رجالا آخرين لمعاشرة زوجته .. أملا فى أن تحمل من أحدهم .. فاذا لم تحمل بعد محاولات متكررة يطلقها . .

وقد يطلق الرجل زوجته بسبب الكسل والإهمال وعدم رعاية البيت والأولاد وعدم تعاونها معه الحقل

والعائلة فى العادة تقوم باختصاص محاكم أول درجة فتنظر المشاكل التى تنشب فى محيطها و ينعقد مجلس من الكبار تدار فيه أقداح البيرة وتسكب بعض من هذه البيرة على الأرض لتشرب بها أرواح الأجداد وترتل الصلوات و يدلى كل خصم بشهادته ويحكم كبير العائلة بما يراه .. فإذا قبل المتخاصمون تقام وليمة شكر و يتصافح الجميع .. و إذا لم يقبلوا تحول القضية إلى «الكايام» وهى محكمة القبيلة . .

وتنعقد « الكايام » تحت شجرة حيث يجتمع أشياخ القبيلة وكبار السن فيها و يجلسون فى نصف دائرة .. ومن خلفهم شباب القرية ..

وتفتتح الجلسة بتلاوه صلاه تقليدية .. ويتقدم الطرفان المتخاصمان بدفع رسوم القضية وتتفاوت حسب نوع القضية من جره من البيرة إلى عدة رؤوس من الغنم . . ثم يعرض كل طرف شكواه و يقدم شهوده و يدور نقاش قانونى بين الموجودين يشترك فيه من يشاء .. ثم ينتخب الموجودون هيئة من القضاة من بين الحاضرين . . و ينتحى القضاه مكانا بعيداً للمداولة بينما تذبح الشاه أو العنزة التى قدمها المتخاصمون رسوم القضيتهم وتشوى على النار ويوزع لحمها على هيئة المحكمة حسب أقدميتهم . . ثم

يقف الحاجب وسط الدائرة و يعلن الحكم الذى وصل إليه القضاء . .

وفى العاده يقبل الطرفان الحكم .. وفى الحالات القليلة التى لا يقبلان فيها تنظر القضية مره أخرى فى جلسة استئنافية .

وقانون العقوبات فى الماوماو ليس فيه أحكام بالسجن أو الاعدام ، وانما الأحكام كلها هى أحكام بالتعويض والدية والغرامة .. حتى فى جرائم القتل .. يدفع فيها المتهم غرامة .. أو تتضامن عائلته فى دفعها نيابة عنه ..

والحالة الوحيدة التى كان المتهم يعدم فيها .. هى حالة اتهامه بممارسة السحر الأسود .. « أو روجى » وثبات التهمة عليه .. وفى هذه الحالة كان الساحر يحرق حيا .

والسلطات البريطانية تمنع الان تنفيذ أمثال هذه الاحكام .

* * *

وديانة الماو ماو فيها كثير من الشبه بالاديان السماوية ، فهم يؤمنون باله واحد يسمونه « موجاييى » خالق لكل الاشياء .. رازق .. مقتدر ، واهب للخيرات والنعم .. سميع الدعاء .. جبار .. منتقم .. يسكن السماء ولكنه ينزل إلى الارض ليتفقد عبيده و يكافىء الصالحين منهم .

وهو واحد أحد لم يلد ولم يولد وليس له كفوا أحد . . وليس كمثله شيء . . ولـكنه يعرف من آثاره وأفعاله . . البرق خنجرة الذى يشق به طريقه أينما سار . . والرعد وقع خطاه :

والله عند الجيكو يو كبير . . لا يصح دعوته للمسائل الفردية التافهة . . ولا يدعى إلا للـكوارث الـكبرى التى تهدد القبيلة . . أما نجدة الأفراد فيـكفى فيها الاتصال بأرواح الأسلاف والأجداد .

والجيكو يو ليست لهم معابد . . و إنما لهم أشجار مقدسة يقدمون عندها قرابينهم و يتلون صلواتهم .

والصلاة عندهم ليست روتيناً يومياً . . وليست فروضاً دورية تؤدى فى كل الاوقات . . وانما هى تؤدى وقت الحاجة فقط لانهم يعتقدون أن الله عظيم ولا يصح إقلاقه بالأدعية والنداءات بمناسبة و بدون مناسبة .

والله ليست عنده هيئة من الرسل والأنبياء يبعث بهم للتبشير بأوامره ونواهيه . . و إنما هو يفعل ما يشاء مباشرة بلا وساطة . . يضع ما يريد أن يقوله فى رؤوس الناس مباشرة بدون وساطة جبريل .

والجيـكو يو لا يحزن لما يقضى به الله . . فحينما يموت له طفل فهذا

قضاء الله . . وهذه إرادته . . والله هو الذى يعطى . . والله هو الذى يأخذ .

وحينما يمرض أحد الأفراد فانه لا يلجأ إلى الله وإنما يلجأ أولا إلى الطبيب ليصف له الاعشاب المناسبة . . فإذا لم يفلح . . يلجأ إلى السحرة ليتصلوا بأرواح أجداده لاسترضائها . . فإذا لم يفلح السحر . . فإنه يلجأ أخيراً إلى الله .

والجيكويو لا يعبدون الاجداد والأسلاف ولكنهم يلجأون اليهم ليكونوا شفعاء عند الله .

وتقديس الأجداد والأسلاف مثل احترام الآباء وكبار السن جزء من ديانة الجيكويو . . والابن حينما يخطىء فى حق أبيه يقدم له شاة أو عنزة .

والأبناء يختصون آباءهم بأشهى الأطعمة وحينما يذبحون شاة يعطون لسانها وكبدها ولحم ظهرها لآبائهم . .

وطقوس الأجداد والأسلاف ليست عبادة ولكنها احترام وإجلال . وهى لا تفترق كثيراً عن فكرة الأوروبى حينما يقيم نصبا تذكاريا للجندى المجهول يرمز به إلى كل الموتى الذين ضحوا بأنفسهم من أجله .

والموتى يمثلون عند الجيكويو هيئة كاملة لمعونته وخدمته وارشاده .

إدارة كامله من أرواح الآباء والاجداد وأرواح رؤساء العشيرة ومجلس أعلى لهذه الادارة من أرواح مشايخ القبيلة .

ولا يوجد كهان ولا قساوسة بين الجيكويو . وإنما الاب والإخوة الكبار فى كل عائلة هم الذين يعلمون الاطفال دينهم .

ولكن هناك الأخيار والأبرار الذين يصطفيهم الله ويطلعهم على أسراره .. وهم فى كل قبيلة يوكل اليهم أمر التنبوء وكشف المستقبل ومعرفة دلالات الغيب .

وحينما يتأخر نزول المطر ويطول موسم الجفاف يتجه نظر القبيلة إلى هؤلاء المختارين يسألونهم السبب فى هذه النقمة الإلهية ..

وفى العادة ينصح هؤلاء بتقديم قربان .. ويحددون مواصفات القربان . . حمل أسود .. أو عنزة بيضاء .

ويبدأ الاستعداد لطقوس القربان . . ويشترك فى الموكب الشيوخ والعجائز من النساء اللاتى تجاوزن سن الانجاب . . والكبار الذين ينضمون اليهم يراعون الصيام عن كل اتصال جنسى لمدة ثمانية أيام .

ويذهب الجميع إلى شجرة التين المقدسة . ويبدأ أكبر الموجودين فى ترتيل الصلاة يجاوبه كورس من الباقين فى أصوات خاشعة .

ربنا يامون تجعل الجبال ترتجف . . والانهار تفيض والامطار تهطل . . ربنا أن أطفالنا جياع . . وأغنامنا عطشى . . وأراضينا تحرقها الشمس . . وهذه ذبيحتنا عند قدميك . . وهذا أجود ما عندنا من عسل النحل الخمر واللبن . . نسكبه بين يديك . . ليرضى قلبك عن أبنائك ولتنزل عليهم المطر .

ويأخذ المرتل رشفة من البيرة ثم يبصقها على الأرض لتشرب معه أرواح الأجداد . . ثم يبدأ الموكب يطوف حول الشجرة المقدسة سبع مرات وهو يرش البيرة واللبن حول الشجرة وتؤتى بالضحية ونقتل خنقا ثم تسلخ ويشوى لحمها وتلف أمعاؤها حول جذع الشجرة ويعطى الموجودون نصيبا من اللحم . . ويحرق الباقى لله . .

ومثل طقوس المطر توجد طقوس أخرى للزراعة . . وطقوس لحماية المزروعات من الحشرات الضارة . . وطقوس لمقاومة الأمراض والأوبئة .

* * *

والسحر جزء لا يتجزأ من حياة الماو ماو .

وهم يسحرون لجلب الحب . . ويسحرون للعلاج . . ويسحرون

لمقاومة الأرواح الشريرة . . ولإخصاب الزرع . . وللوقاية من الحيوانات المفترسة

وهناك سحرة محترفون يقضون نهارهم فى تجهيز الأعشاب السحرية ودقها وسحقها وتركيب الوصفات السحرية وصناعة الرقى والأحجبة .

والسحر بالحب له طرق مختلفة عند الجيكويو . . وفى إحدى هذه الطرق يضع العاشق غصنا صغيراً من شجره « أومبانى » تحت لسانه بعد أن يقرأ عليه الساحر طقوس الحب السحرية . . حتى إذا التقى بحبيبته طارحها بغرامه فتقع فى حبه لفورها . .

وجومو كينياتا الزعيم المعروف . . وهو من الجيكويو يذكر فى كتابه عن كينيا أنه جرب هذه الوصفة وانها نجحت فى استمالة قلب حبيبته . .

والطريقه الثانية أن يحصل المحب على خصلة من شعر حبيبته أو قصاصة من أظافرها ويعطيها للساحر فيخلطها بأعشابه السحرية ويضعها فى حجاب يقسمه نصفين . . نصف يعطيه للعاشق والنصف الآخر يدسه فى فراش الفتاة .

ويقول العاشق وهو يضم يديه على الرقية :

أيتها القوى السحرية . . اجعليها تحلم بى فى نومها . .

احملى إلى أذنيها همساتى وأفكارى لتعيش مثلى فى انشغالى . .

وفى نصف الليل حينما يهدأ كل شىء يخاطب محبوبته قائلا :

يا حبيبتى . . افتحى قلبك لتسمعى كلماتى . .

لقد أرسلت اليك همسة الحب السحرية مع شعاع الفجر . . أداعب بها قلبك حتى يلين ويمتلىء وجدا وصبابة . .

وهناك سحر آخر شرير يسمونه السحر الاسود «أوروجى» والساحر الذى يمارس هذا النوع من السحر يسمونه « الموروجى » . .

والموروجى يصنع تمائمه من مسحوق الأعشاب السامة يخلطها بأعضاء آدمية . . عيون آدمية . . وأعضاء تناسلية منتزعة من الجثث المتعفنة . . وحلمات نهود بشرية . . وجذاذات من الأيدى والارجل والآذان ودم متجمد . . وهو يحصل على هذه الأجزاء بقتل ضحاياه بالسم واستدراجهم فى الغابة حتى يموتوا فينقض عليهم ليقطع شرائح من كل مكان خبيث فى أجسامهم . . ويجفف هذه الاجزاء ويسحقها ويخلطها بأعشابه السامة ويصنع منها تمائمه السوداء التى يقرأ عليها تعاويذه الشيطانية .

وأحيانا يصنع منها شرابا قاتلا . . أقل جرعة منه تقتل لساعتها :

« والموروجى » يعيش منعزلا متوحدا . . يتنقل متخفيا بين الكهوف والغابات ينام بالنهار ويصحو بالليل كالبوم والخفاش . . وقديما كانت سلطات القبيلة تطارد هؤلاء السحرة وتقبض عليهم وتحرقهم أحياء . .

والسلطات البريطانية تمنع الآن هذه العقوبة . . وتستبدل بها عقوبة السجن . . تطبقها على جميع السحرة . . الذين يسحرون للنفع أو للضرر . .

ذات ليلة جلس الساحر «موجا وأ كبيرو» بين أتباعه من الجيكويو
روى لهم الحلم الغريب الذى رآه فى منامه . . وكيف أنه رأى رجالا بيضا
يطلون من البحر وفى أيديهم عصى تخرج من افواهها النيران . . ويمدون
لى الأرض ثعبانا من الحديد . . وكيف أنه رأى الثعبان الحديدى يمشى
يبتلع فى طريقه كل شىء . . .

وكان الجيكويو من حوله . . يحملقون ذاهلين . . كأنهم يستمعون
أسطورة من أساطير الجن . .

كان هذا منذ مائة عام . .

ولم يكن ذلك الحلم أسطورة من أساطير الجن . . وانما كان تاريخا .

فقد صدقت رؤيا « موجا وا كبيرو » وتحققت نبؤته بعد سنوات
لائل . . ونزل الانجليز إلى القارة ومعهم البنادق . . ومدوا الخط
لحديدى بين كينيا واوغنده (الثعبان الحديدى الذى ابتلع فى طريقه
ل شىء) .

وقد ابتلع الانجليز فى طريقهم كل شىء . . ونشروا الذعر أينما حلوا
روعوا النفوس ومسخوا العقول وأتلفوا الأبدان بما جلبوا من أمراض
لفاكة . .

مع حملة ستانلى التى جاءت إلى أوغندا جاءت ذبابة تسى تسى و
مرض النوم إلى جنوب السودان ..

ومع السفن المحملة بالعتاد التى كانت تتقاطر على الشاطىء الإفر
جاء السل . . والزهرى . . والسيلان . لينتشر فى القارة ويرعى
كما ترعى النار الهشيم . .

وكانت الحضارة الغربية بالنسبة للوطنى من أهل البلاد صدمه
كانت شيئا كالسحر . .

البندقية . . والقطار . . والسيارة . . والكهرباء والراديو . . والقر
والكتابة . .

هذه الحروف الشيطانية التى يكتبها ذلك الرجل الأبيض على الورق وين
بها أفكاره ورغباته بسرعة البرق. كانت شيئا يذهله ويصيب عقله بالدوا

ونظر الإفريقى البدائى حوله فرأى حياته تنهار . . وكل ما فيها
معانى يتحطم . . أديانه . . معتقداته . . عاداته التى نشأ عليها . . أرضا
بقراته . . عالمه الحبيب الذى ارتبط به .. داسته الأقدام

وأصابه داء عجز الطب من علاجه . . هو داء اليأس . . والته
النفسى .

وهلكت قبائل واختفت . . مثل قبائل الماورى . . وانقرضت
ل آخرى . .

قبيلة الزاندى التى كانت من أكبر قبائل افريقيا عددا تضاءلت حتى
بحت فى عداد المليون .

الماو ماو . . والماكامبا . . والماساى . . نقصت مواليدها حتى أشرفت
الفناء .

سكان أستراليا الأصليون . . لم تبق منهم إلا بضعة معدودة فى
حارى .

وراح المستعمر يتبجح فى كل مكان بأنه ينشر المدنية . . فى مجاهل
تعرف مدنية . . و ينشر النور والعرفان . . بين متوحشين ليس فى
تهم قيم ولا أخلاق . .

والحقيقة أنه أخذ الكثير من قيم هؤلاء المتوحشين وعاداتهم وادخلها
حضارته . .

تعلم منهم شرب الشاى والكاكاو والقهوة . . وأخذ عنهم عادة
دخين . . وشرب الغليون . .

ولطش الفنون الأفريقية التشكيلية .. والموسيقى الإفريقية .. وايقاع الجاز . . والرقص .

وأخذ عادة العرى . . وجعل منها فنا وفلسفة . . وأنشأ نوادى لل في أكثر عواصمه تقدما .

وادرك قيمة الحرية الجنسية فى المجتمع البدائى تلك التى وصمها البداية بالفساد والتحلل . . فأصبحت الآن سمة من سمات أرقى مجتمعات

وأصبحت « الأومبانى نا جويكو » من تقاليد البنات والأولاد المجتمع الأمريكى . . يمارسونها قبل الزواج . . ويسمونها فى بلا
ugging and Necking

والحرية الجنسية ذاتها أصبحت نظرية ينادى بها فلاسفة أمثال فرو والسحر . . والمعارف الغيبية . . والأرواح . . أصبح لها كرسى أرقى الجامعات الأوروبية .

لم يكن الإفريقى متوحشاً .

ولم تكن حضارته . . بربرية متأخرة .

والحق أن هذ البربرية احتوت على الكثير من لمحات التقدم .. ال فاتت على الرجل الابيض صاحب العلم . . والنور . . والعرفان .

كان اتصال الغرب بالشرق فى افريقيا تزاوجا متبادلا . . فقد أعطى الإفريقى كل شىء . . ارضه و بلده . . وجسمه .. وروحه .. وكان المستعمر شحيحا جدا يعطى بالقطارة .

احتفظ لنفسه باسرار العلم والصناعة والمعارف العلمية .. واكتفى بنشر اللغة الأنجليزية .. وتوزيع نسخ من الانجيل .

وكانت السياسة التعليمية فى المستعمرات توجه نحو الدراسات النظرية ونحو خلق طبقة من الموظفين اصحاب الياقات البيضاء .. ونحو احتقار المعارف العملية . والعمل اليدوى .

وكانت المدارس التبشيرية تعمل من ناحية آخرى على اضعاف الروح القومية والتماسك لاجتماعى .

ولم يكن الإفريقى فى حاجة إلى عقائد . . فعنده من هذه العقائد الكثير . . وعنده رب رحيم غفور يهديه فى حياته .

وديانة الإفريقى ديانة رقيقة رحيمة ملائمة لحياته الشاقة . . فليس فيها فكرة الجحيم . . ولا فكرة العذاب الأبدى فى جهنم .. ولا فكرة الخطيئة الأولى

وكانت التعاليم المسيحية بالنسبة له فى البداية . . شيئا غير مفهوم .

لم يكن يفهم معنى لأن يبعث بعد الموت ليوضع فى جهنم . . لأنه أخطأ ذات مره على الأرض . . كان هذا يبلبل عقله . . وحينما كان القسيس

الكاثوليكى يواجهه بمصيره التعس إذا تزوج أكثر من زوجه واحدة .
كان يقع فى صراع . . وحيرة لا آخر لها .

فالافريقى البدائى لم يكن يملك من الاسلحة غير . النسل الوفير .
وفى حربه ضد الفقر والجهل والمرض والتأخر والحيوانات المفترسلة لم يكن
له حول ولاقوة سوى نسله .

وكان معنى أن يتزوج بواحدة . . ويتضاءل نسله . . أن ينقرض .
ويفنى وهذا هو ما كان حادثا بالفعل .. فقد كان فى طريقه إلى
الانقراض .

وبدأ الإفريقى يهرب بعاداته وتقاليده إلى الغابات . . ويلوذ
بالجبال .. والإفريقى الذى نال حظاً من الثقافة كان يناقش القسيس ..
ويسأله عن . . يعقوب وداود . . وسليمان . . وسائر انبياء الذين ورد
ذكرهم فى الانجيل فى إجلال وإكبار . . وكل منهم كان له جيش من
الزوجات . .

وهم هناك يفضلون أسماء .. داود.. وسليمان .. ويعقوب .. لهذا السبب .
وفشل المبشر فى اقتلاع عادة تعدد الزوجات لأنها كانت مرتبطة
بشىء أعمق من مجرد المتعة . . هو حفظ النوع .

كانت إملاء من الطبيعة والبيئة والظروف .

و بدأ المبشر يتبع أسلوبا آخر . هوأسلوب الخدمات . . فراح يتقرب إلى هؤلاء البدائيين بالهدايا فيحمل اليهم الخرز والصابون . . ويقدم لهم وجبات اللبن . . ويداوى اطفالهم وماشيتهم . . ويطهر مزروعاتهم من الحشرات .

و بدأت الكنيسة تثبت أقدامها كمركز للخدمات وسط الغابة .

ولكن رغم الأخاء والمحبة وتعاليم المسيح . . كان السود والبيض يصلون فى كنائس منفصلة . . وكانت هناك كنائس للسود وكنائس للبيض .

وفى جنوب افريقيا . . كان اضطهاد اللون أشد بكثير . .

كانت المسيحية فى افريقيا مظهرا من مظاهر الدعاية . . ولم تكن تمت إلى المسيحية الحقيقية بنسب . . كان الاستعمار يتخذ منها مبرراً ليفعل ما يشاء باسم الدين .

والحقيقة أن هذه القبائل البدائية كانت تعيش فى اخاء وتعاون ومحبة أكثر من المجتمعات التى عرفت الأنجيل .

وفى قبيلة الماو ماو كان الطفل ينشأ على تربية تعاونية خالصة . . الزراعة

يشترك فيها الجميع الزوجة والاولاد والبنات والاطفال . . جنى المحصول . . اعداد الطعام . . طحن الحبوب . . صناعة المريسة . . الخروج للصيد اللعب . . الرقص . . الاحتفالات الدينية . . كل الوان النشاط تزاولها الجماعة معا . . حتى دية القتيل والتعويض عن الجرائم تشترك الجماعة فى تأديتها عن القاتل متعاونة متكانفة . . حتى مهور العرائس تشترك العائلات فى تدبيرها ودفعها عن العريس .

الطهور يؤدى جماعيا .

السكوخ فيبنيه جميع الجيران تطوعا بدون أجر .

الأرض تمنح للزراعة بدون مقابل من باب الصداقة والحب والثقة

الطفل يولد ويتربى ليجد نفسه عضوا فى فريق .. يفرح .. ويحزن ويبكى . . ويضحك . . بروح الفريق . .

الأفراد ينادون باسماء آبائهم . . ابن فلان . بنت فلان . .

الاب هو المربى والمعلم والقائد الروحى .. وهو يأخذ طفله من يده ليرتاد معه الغابة ويشرح له على الطبيعة أحوال النبات والحيوان .. ويأخذه معه إلى « الكاياما » . . محكمة القبيلة . . ليتدرب على مناقشة القانون .. ويأخذه معه فى المحافل الدينية ليلقنه واجباته الدينية . .

التكوين الأخلاقى لكل فرد .. خال تماما من الإنانية . .والفردية . . والملكية المستغلة . . وعبودية الأجر . . التى يعانى منها مجتمع الغرب . .

وما أكثر ما كان الماو ماو يقرا فى الانجيل عن شرور لا يفهمها . .

وما أكثر ما كان القسيس يحذره عن رذائل لا علم له بها ..

كان يحضه على الصيام . . والامتناع عن الخمر . . والإحسان إلى الفقراء . .

كيف يصوم ذلك الصائم الأبدى . . أنه لا يكاد يأكل شيئا ..

كان يقول له . . لا تكذب . . لا تسرق . .

من الذى يسرق . . ؟ !!

من الذى يرفع الأعلام الأجنبية فى كافة أرجاء البلاد . . ويضع المراسى على الشاطىء . . ويحتكر خيرات البر . . والبحر .. والجو . . ويضع فى جيبه باسبورت اقامة فى بلد لا يملكه .

لو ذلك القسيس الطيب سال نفسه مرة واحدة هذا السؤال البسيط . . لعرف حقيقة الدوافع التى اتت به إلى ذلك المكان . . وحقيقة الأغراض التى سخر من أجلها

فلم يكن المبشر خادعا . . وإنما كان مخدوعا . وكان يخدم خطة كبرى لا يدرى عنها شيئا .

فى وسط هذا الصراع كان ذلك البـدائى المهزوم المغلوب على أمره لا يجد من يلوذ به سوى ماضية وتقاليده .. فيتمسك بهـا .. ويقاوم كل جديد يقتحم عليه حيـاته .. كان يرفض الجديد الذى يضره .. والجـديد الذى ينفعه ..

كان يفضل الحديد الردىء الذى يصنعه مواطنوه على الحديد المصقول الذى يصنعه المستعمرون البيض ..

وكان يقاوم الجرارات المـكانيكية التى تحرث الأرض .. ويقف فى طريقها معتقدا أنها تفسد الأرض بتقليبها ..

تماما كما كنا نفعل زمان حينما كنا نرفض السماد الـكيماوى خوفا من اتلاف المحصول ..

حكايات يرويها الغربيون كدلالة على التأخر .. وهى ليست دلالة تأخر بقدر ما هى دلالة حيوية وانفعال .. فهى ردود أفعال طبيعية من ضعيف متأزم يرتاب فى كل ما ياتية من القوى ..

والماو ماو من القبائل القليلة التى احتفظت بحيويتها .. طوال محنة الاسـتعمار ظلت محتفظة بتماسكها ووحدتها وقوتها ..

والسر فى هذا أنها أكثر من مجرد قبيلة . . أكثر من مجرد تجمع عددى من أفراد بدائيين . . فهى حضارة . .

وهى كديانة . . وكأخلاق . . وكنظام . . وكطريقة حياة . . تمثل مرحلة متفوقة .

ولهذا وقفت على قدميها أمام حضارة عمرها عشرين قرنا . . واستطاعت أن تمنحها شيئا .

واستطاعت أن تواجه الظلم . . وأن تتكتل فى تنظيمات . . وتحارب الاستعمار . . وتزلزل حصونه . . وسجونه . . وترغمه على التسليم بمطالبها

وهى معجزة لم تحققها الحراب . . والنبال . . وإنما هى معجزة حققها نظام

نظام فيه مقومات حضارة متفوقة

وكلمة ماو ماو التى تجرى على الالسن كهمهمة بربرية . . لاتدل على حقيقة هـذه القبيلة العجيبة . . حيث كل عادة . . وكل عرف . . وكل تقليد من تقاليدها غنى بانسانيته . .

ولا غرابة فى أن تمنحنا هذه القبيلة زعيما انسانا مثل . . أو مو كينياتا . .

السودان

السوادن تيه شاسع .. مليون ميل مربع فيها كل صنوف النبات والحيوان . وكل ضروب الأجناس البشرية . وكل الوان الطقس من جفاف شديد . . إلى رطوبه . . إلى حر لافح . . إلى امطار هادرة . . إلى صقيع . .

الجنس الحامى والسامى والزنجى فى أخلاط وأمزجه وكوكتيل من كل الدرجات . . سواد كالابنـــوس . . سمرة نحاسية . . سمرة خمرية . . ألوان قمحية فاتحة . . تقاطيع أوروبية دقيقة . . تقاطيع زنجية غليظة . . ملامح عربية . . سمات مصرية . .

فى قبائل بنى عامر تجد ملامح الجنس الحامى فى صورته النقية . . الشعر المتموج والانوف المستقيمة والبشرة الحمرية والقامة المعتدله . . والجنس الحامى هو الجنس الذى انحدرت منه الشعوب الفرعونية . . وأصله فى آسيا والقوقاز . .

وفى قبائل الرشايدة والبقارة تجد ملامح الجنس السامى فى صورته النقية . . الوجوه السمراء المستطيلة العربية والقامة الطويلة كالرمح . .

وعلى خط الاستواء تجد الملامح الزنجية الصرفة . . الشعر الاجعد الانوف المفرطحة والشفاه الغليظة المقلوبة . .

وحاصل جميع كل هذه الصفات تجده فى كل مكان نتيجة التزواج المستمر على مدى الاجيال .

وكل شيء فى السودان بالألف و بالمليون • • الثروة الحيوانية بند الماشية وحدها ٢١ مليون رأس•• الظيور الملونة أسراب من ملايين لم تجرؤ مصلحة إحصاء على عدها بعد • • الامطار كذا مليار امتار مكعبة

مديرية كردفان وحدها مساحتها مثل مساحة فرنسا • • وهى واحدة من عدة مديريات فى السودان

ولكن الشيء الوحيد القليل والنادر هو التعداد البشرى

كل السودان بمتاهاته الشاسعة تعداده ١٢ مليون وفى آخر إحصاء رسمى فى سنة ١٩٦٠ عشرة مليون ومائتين ألف بالضبط

مديرية كردفان التى هى مساحة فرنسا تعدادها مليون وسبعمائة الف فى الوقت الذى تزيد فيه فرنسا على أربعين مليونا .

الخرطوم أكثر المدن ازدحاما تعدادها نصف مليون . . أى أقل من تعداد شبرا •

والنتيجة أن ثروات السودان كلها ما زالت مكنوزة فى التربة وفى الماء وفى الغابة . . بلا تشغيل . . لا توجد الأيدى الكافية لإستخراجها . . والأيدى القليلة الموجودة يشلها الحر اللافح وترهقها المسافات الطويلة • • بلا طرق • • و بلا مواصلات سريعة • •

ومع ذلك فالحكومة بالموارد البشرية القليلة و بالميزانية المحدودة صنعت الكثير ..

مشروع مثل مشروع الجزيرة .. روى مليون وثمنمائة الف فدان وشغل ٣١ الف مزارع وانتج أقطانا ممتازة طويلة التيلة .

وتأميم المشروع فى سنة ١٩٥٠ حول اقتصاديات المنطقة إلى اقتصاديات اشترا كية وحقق دفعا ثوريا هائلا ..

ومشروع مثل مشروع خشم القربة الذى يجرى العمل فيه الآن سوف يروى مناطق أوسع . و يحقق تقدما أ كبر ..

وحينما دخلت الخرطوم .. لاحظت أ كثر من شارع جديد تم تخطيطه .

والخرطوم مدينة من طراز فريد .. فهى تجمع خصائص الريف وخصائص المدن .. فهى أشبه بالضواحى .. أشبه بالمعادى عندنا .. شوارع واسعة هادئة .. و بيوت متناثرة متباعدة لا يزيد الواحد منها عن طابق واحد ولا يوجد فى الخرطوم التناقض الحاد الذى يستفز الأعصاب الموجودة فى نيروبى ودار السلام بين سرايات الانجليز وأ كواخ الزنوج . . فلا انجليز هناك .. ولا زنوج .. ولا أ كواخ .. ولا سرايات .. و إنما فيلات على الأ كثر

.. والطبقة المتوسطة هى الأغلبية .. وسكان البلد قليلون . . والشوارع تخلو من روادها بعد العاشرة مساء . . وتشعر أن المدينة نامت . . وتمشى عدة كيلو مترات على شاطىء النيل فى جو شاعرى ملهم ولا تعثر على فتى وفتاة فى حالة انسجام .. ولا تعثر على الأكثر إلا على شلل متناثرة تشرب البيرة فى مشارب على الشاطىء وكلها من الجنس الخشن ..

شىء غير طبيعى ..

والنتيجة أن الشباب يبحث عن السلوى فى البيوت المرخصة..

والسودانى وديع جدا ورقيق وعاطفى وهادىء .. وفى الأيام العشرة التى عشتها فى الخرطوم لم أعثر على خناقة واحدة .

واللهجة السودانية تشبه لهجة الصعيد عندنا .. لكنها أسرع وتنطق فى خطف .. ربما للتدفق العاطفى فى طبيعة السودانى ..

وهذا الخطف السريع فى مقاطع الألفاظ هو السبب فى ظهور كلمات سودانية خاصة مثل :

هسع : هذه الساعة .

ما خسانى : لا يخصنى .

ما كويس : مش كويس .

ما معقول : غير معقول .

بالله : والله .

جداد : دجاج .

كيفك : كيف حالك .

هناى : الحاجة اللى هنا .

الزعبور : الزوبعة الترابية .

وكل التعديلات التى دخلت على الكلمات هى تعديلات اختصار .. خطف للمقاطع المتعددة فى مقطع واحد .. فهى ليست لغة خاصة .. وإنما هى اللغة العادية منطوقة بسرعة .

وسرعة الكلام عند السودانى لا تدل على عجلة .. لأن السودانى بطبيعته غير متعجل .. ولا يوجد أكثر من الوقت فى الخرطوم .. وإنما السرعة فى الكلام دلالة عاطفة .

وهذه السرعة تظهر مرة أخرى فى الموسيقى السودانية .. المقاطع الموسيقية كلها سريعة نشطة ..

ولا يوجد فى السودان غناء كلثومى .. ذلك الغناء المتمهل ذو المقاطع

الطويلة البطيئة لا يوافق المزاج السودانى .. وأغنيات عبدالحليم وموسيقى عبد الوهاب تجد عندهم صدى أكثر .

والحر فى الخرطوم شديد القسوة .. ورغم وجودى فى الخرطوم فى الأيام المفروض أنها أيام شتوية باردة .. فقد كانت الشمس تضرب رأسى بعنف كأنها تهوى عليها بقدوم .. وكنت أشعر بعد دقائق من المشى فى الشمس أن رأسى ورمت تماما .. وأن عظام رأسى تؤلمنى .. ولم يكن شرب الماء يسعف .. فالجفاف شديد .. والماء يتبخر من اللسان والجلد بسرعة .. والصوت يبح و يصبح مشروخا لكثرة ما يتبخر من اللعاب ..

ومقاس الأكواب فى الخرطوم ثلاثة أضعاف مقاس الأكواب عندنا وزجاجة الكوكا كولا مقاسها دوبل لهذا السبب ..

والزير يثلج الماء مثل الثلاجة .. لأن الماء يتبخر من على سطحه بسرعة هائلة و بالتالى يخفض درجة حرارته بسرعة أيضاً .

والجلد فى الأيام الحاره يجف و يتشقق من كثرة الجفاف .. ويحتاج إلى الكريم والمطريات باستمرار ..

والفرق بين الشمس والظل أكثر من عشر درجات .. لدرجة أن مجرد انتقالك نصف متر إلى الظل كأنك سافرت اسكندرية ..

والفرق بين معدلات الحراره فى النهار والليل شاسع .. بدرجة أنك تلبس قميص على اللحم بالنهار .. و بلوفر صوف ثقيل على بدلة كاملة بالليل ..

والجو مع هذا محتمل فيما عدا مايو ويونيو و يوليو .

والذين جربوا حر أسيوط يمكنهم أن يتصوروا جو الخرطوم .. فالاثنان جوهما متشابه .

والحر والجفاف يؤديان إلى الاسترخاء الشديد والكسل .. وتكييف الهواء فى مثل هذه الظروف يصبح كعملية الاسعاف والتنفس الصناعى لطريح يعانى الاختناق والإغماء ..

والمنظر الذى يشاهد فى أكثر من مكان فى الخرطوم هو موائد البيره والشلل التى تلتف حولها فى دوائر وتكرع الزجاجة بعد الزجاجة .

و يبدو أن هذه العادة هى بديل طبيعى لعدم وجود الاختلاط ولقلة النوادى والسينمات وأماكن السهر ولشدة الجفاف .

وساكن الخرطوم فى المتوسط أكثر ثقافة من ساكن القاهره .. وأكثر عكوفاً على القراءه والاطلاع .. وأكثر جديه فى قراءته ..

والظاهر أن الشارع عندنا فى القاهرة مسلى لدرجة أن الواحد منا

يحتاج إلى كثير من الضغط على نفسه ليغلق على روحه الباب و يفتح كتابا .. وهو إذا استطاع أن يقاوم إغراء الشارع لن يستطيع مقاومة إغراء التليفزيون .. أو الوقوف فى الشباك .. والنتيجة أن ينتهى اليوم بدون محصول ثقافى يذكر .

والتربية على القراءه ليست فى حياتنا كما فى حياة السودانى .

ونحن نعوض هذا النقص فى الإطلاع بالتهريج والنكتة الذكية .

والسودانى لا يهرج كالمصرى .. بل هو على العكس مهذب جدا .

و إذا سألت أحد السودانيين خدمة تسابق عشره إلى تلبيتك .. ولو أننى بدأت أروى أسماء الذين طوقونى بمحبتهم لملأت الأعمدة الباقية بالأسماء .. ولكنت بعد ذلك ظالما للمجهولين بلا أسماء الكثيرين بلا عدد على طول الطريق الذين قدموا إلى المحبة والمعونة بلا معرفة ..

وفى أم درمان كما فى الموسكى عندنا .. تلتقى بهذه الصفات الشعبية أكثر وأكثر كما تلتقى بالأطعمة الشعبية الأصيلة فتشرب « الأبرية » ... « والحلومر » ... وتأكل « الكسرة والملاح » ... وتمشى فى شوارع مزدحمة بالصناعات المحلية كسوق العاج .

وقد عشت أيامى العشرة فى الخرطوم أتعرف على الحياة الاجتماعية

فيها .. وأبحث فى المكتبات عن كتب فى الجنوب .. وفى قبائل الاستوائية تلك البقاع التى خلفتها ورائى فى تنجانيقا وكينيا لتعود لتشدنى مرة أخرى إلى رحالها فى السودان ..

وكنت أتأهب إلى السفر فى شوق ..

* * *

وحينما ركبت الباخرة النيلية نازلا من الخرطوم إلى كوستى إلى غابات الجنوب وأنقطعت صلتى مرة أخرى بالمدينة .. شعرت أنى عدت إلى الحياة التى عشقتها .

وكانت تمر أيام كاملة لاتقع عينى على إنسان . لاشىء سوى مسرح تعج فيه التماسيح .. وتتقاطر قطعان سيد قشطة لتسد طريق الباخرة .. وتسبح نباتات الهياسنت فى جزائر عائمة يجرفها التيار و يدفعها بشدة نحو الشمال

وعلى الشاطئين كانت ترى سهول على مدى البصر تملأها نباتات البردى وأعشاب السفانا وتمرح فيها الفيلة فى أسراب ..

وفى الجو تزقزق العصافير الملونة وتغنى البلابل والكروانات .. و يطن البعوض .. وفى الليل تلمع حشرات الحباحب المضيئة .. وتتألق لتجتذب البعوض ثم تنقض عليه وتأكله .

وكانت الغرفة على يمينى بها سائح ألمانى والغرفة على يسارى بها سائح

أمريكى .. والغرفة فوقى بها عالم هولندى وعلى الدك مجموع من زنوج الشيلوك .. والدنكا .. والنوير ..

وفى الممرات الضيقة كنت أسمع أكثر من عشر لهجات .. لا يستطيع أى منها أن يفهم الآخر

ووجدت نفسى أطلق ذقنى .. وأمشى بلحيتى على سطح المركب دون أن أشعر بغرابة .. تماماً كما يسير الزنوج عراة على طبيعتهم حولى ..

وكلما توغلت المركب جنوبا كلما تخففت من قطعة من ثيابى .. حتى أصبحت فى النهايه أسير عارياً بالكالسون ..

وكنت أتذكر الخرطوم .. أحياناً .. من هذا البعد الشاسع فتبدو لى بلداً غريبة فى شمالها القاهرة الباريسية بالجابونيز والديكولتيه والبلوزات بحجم الكف وفى جنوبها زنوج بور والملكال بورق التوت وأحياناً عرايا بدون ورقه التوت وهى فى الوسط تخنق نفسها بالتوب وتغطى مواطىء الفتنة حتى المنكبين وتقيم سداً منيعاً بين نسائها ورجالها .. لا متنفس فيه لاختلاط .. أو عاطفة أو علاقة .. إلا برخصة .. و بطريقة غير مشروعة ولم أكن أفهم لهذا التشدد معنى ..

كان يبدو لى تشدداً أقرب إلى التشنج منه إلى العفة

وفى الناحية الأخرى كانت هناك قلة النسل التى تهدد كل هذه الثروات بالبوار .. تعداد من عشرة مليون فى متاهات شاسعة .. الثمار تقع من على أشجارها وتتعفن دون أن تجد من يأكلها .. والأرض تنبت ماتشاء من عشب شيطانى دون أن تجد من يزرعها .. والمرأة فى الخرطوم حبيسة البيت خوفاً من أن تحمل فى الحرام ..

أى حرام

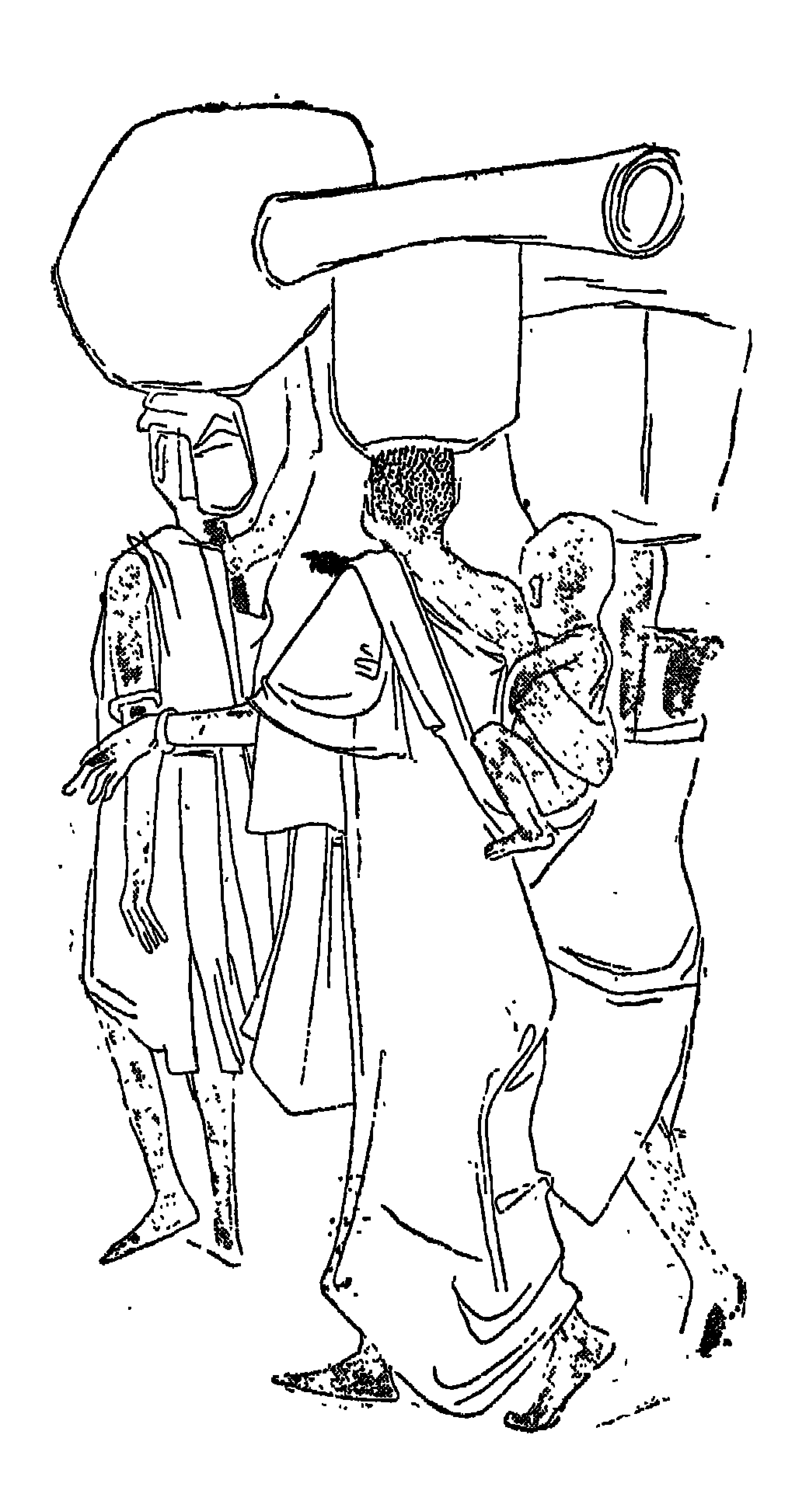
أن هذا العطل الذى تعيش فيه هو الحرام ..

أن الثمار تصرخ منادية على من يقطفها

والأرض الخلاء تصرخ منادية على من يعمرها وكل شبر فراغ يتضرع إلى كل أنثى لكى تحمل وتلد

والخطة الاجتماعية كانت يجب أن تشجع الرغبة الطبيعية بين الرجل والمرأة كقوة دافعة للنسل وتمهد لها ظروف الاختلاط الطبيعية لتؤتى أقصى ثمارها بالتزاوج .

أن المرأة فى قبيلة الجيكويو التى تذهب بفطرتها السليمة إلى زوجها بعد سنة من الزواج لتحرضه على الزواج بأخرى ليزداد عدد الأولاد فى العائلة منطقها أكثر سلامة من كل هذا التعقيد الذى جلبه التمدن على الحياة الاجتماعية فى الشمال ..



إن حياة الغابة البسيطة المباشرة تبدو لى مفهومة أكثر ..

إن هذه الإرادة الأنثوية التى تواجه بها المرأة عوامل الانقراض والفناء التى تعمل مناجلها فى ألوف الزنوج حصداً .. وتبقى على القبيلة رغم كل شىء . هى الفضيلة ذاتها

ولو أن بنت الجنوب عاشت فى التزمت الذى تعيش فيه بنت الشمال لانقرض جنسها كله وأمحى من الخريطة ..

إنه الهام الطبيعة .. يضع ناموس الأخلاق ليكون ناموس بقاء .. قبل أن يكون مجموعة تعاليم نظرية .

والطبيعة تنادى أهل الشمال ليتخففوا قليلا

بعض الحرية .و بعض البحبحة.. ومزيد الاختلاط. ومزيد من الزواج..

* * *

مضت أيام اثنتا عشر منذ أقلعت الباخرة من كوستى..ومازالت الباخرة تسير فى منعطفات لانهائية.

ومشيت بأصبعى على الخريطة .. على خط السير الطويل.. الخرطوم كوستى.. الملكال .. بور .. جوبا .. ياى .. مريدى .. يامبيو.. انزارا

ووضعت دائرة حول بامبيو

هناك قلب منطقة « الزاندى »

و « الزاندى » هى القبيلة التى أطلق عليها الجغرافيون العرب نيام

نيام . .

وأغمضت عينى . .

أن قلبي هناك . . فى أعماق الغابة . .

النيام نيام

ماترويه الكتب عن قبيلة الزاندى « نيام .. نيام » غير الحقيقة التى رأيتها على الطبيعة لأن معظم هذه الكتب قديمة احدثها طبع منذ ثلاثين عاما (دراسة سليجمان عن قبائل السودان ١٩٣٢) ومع ذلك .. فهذه الدراسة هامة .. لأنها تعطى صورة دقيقة للماضى ..

والزاندى قبيلة كبيرة تزيد على المليون .. أفرادها منتشرون فى جنوب السودان فى منطقة مريدى ... يامبيو .. انزارا .. وفى الكونغو البلجيكية .. وفى السودان الفرنسية .. وفى أوغندا ..

والحدود الجغرافية بين هذه الدول لا تشكل حدودا بالنسبة للزاندى .. فالعائلة الواحدة من الزاندى تجد فيها الاب بالسودان والابن بالكونغو والخال فى السودان الفرنسى ..

وقبيلة الزاندى قبيلة محاربة غازية افرادها أقوياء أشداء .. على ذكاء نسبى أعلى من بقية القبائل ..

والذكاء قد خلف أثاره فى تاريخ هذه القبيلة العجيب .. فقد انفردت بين جميع القبائل بنظام ارستقراطى للحكم .. يتولى فيه الصفوة «الأفونجارا» حكم الاغلبية ..

وقدخصت طبقة الافونجارا نفسها بامتيازات عديدة.. فهى تتوارث الحكم بين افرادها. . وهى تعفى نفسها من القيود المتبعة فى الزواج فلا تتحرج من زواج المحارم.. الأب يتزوج ابنته. . والابن يتزوج أمه. . الاخ يتزوج أخته. . واذا راق للأفونجارا أى عدد من نساء الشعب فانه يتزوج به ..

والملك بادوى آخر ملوك الافونجارا كانت له حاشية من الحريم تمتد أكواخها مسافة سبعة كيلومترات . .

وفى سبيل حماية هذا الجيش الهائل من الحريم كان الملك يعاقب بالخصى وتقطيع الاطراف والاعدام كل من يتجرأ من أفراد الشعب على اغواء حريمه . .

وكانت نتيجة هذا الحصار المضروب حول الحريم . وعدم قدرة الملك على اشباع رغبات هذه الحاشية النسوية . . أن نشأت عادة السحاق والشذوذ الجنسى بين النساء . . واتخذت القبيلة التى استأثر الملوك بأكثر نسائها من الصبيان والولدان زوجات . .

وظلت علاقة الرجال بالاولاد مباحة ومشروعة حتى ألغتها الحكومات المحلية . .

والزاندى يؤمنون باله يسمونه « مبولى » وكل شئ فى الدنيا يتحرك بارادة «مبولى » . . وهو يسلط الصواعق على الاشرار من البشر . . ويكافئ الصالحين منهم . .

والزاندى لهم طقوس خاصة حينما يصلون لمبولى . . فهم يملئون أشداقهم بالماء ثم ينفثون مابها من ماء على الأرض وهم يغمغمون .

مبولى الهنا . . اننا لم نسرق من أحد . . ولم نأخذ نساء جيراننا . . ولم نفعل شيئا يغضبك . . مبولى اذا كنت ترغب فى موتنا فليكن موتنا فى يوم آخر غير هذا اليوم

وهم مثل سائر القبائل يؤمنون بأرواح الموتى . . « اتورو » . . وقدرتها على انقاذهم ومعونتهم . . ويقدمون لها القرابين من الحبوب والفواكه والدجاج . .

ويعتقد الزاندى أنه عند اتصال الاب بالام يتحد « بيزيمو » من الاب مع « بيزيمو » من الام . ويتكون من المنصرين الطفل الوليد . . وحينما يكبر الطفل ثم يجئ دوره ويموت فان «بيزيمو» تتحول إلى « أتورو » . .

وتخرج الروح « أتورو » لتسكن الجبال وأعالى الجداول . ولا تترك

هذه القمم العاليه إلا لتذهب فى زيارة الاقارب بين حين وآخر . . اما الجثة فتتعفن جميعها فيماعدا اليد اليمنى للميت فانها تتحول إلى الحيوان المقدس « الطوطم » الذى انحدرت منه العائلة . . . وبهذا فانها تصبح فهدا أو أسدا أو تمساحا حسب نوع الحيوان المقدس . .

وحينما يموت الميت فانه يغسل و يلف فى ثوب من القماش وتغنى النسوة أغانى الموت . . وتحفر حفرة يوضع فيها الجسد على جنبه الايمن مع ثنى رجليه وذراعيه وتوضع معه أسلحته .

وأثناء حمله إلى مقره الأخير يشكف الحمالون وجهه لتناديه زوجته باسمه . . وتودعه بنظرة أخيرة . .

و يعتقد الزاندى أن روح الميت لا تهدأ إلا إذا انتقم أهله من قاتله.. وكل وفاة عندهم ليست وفاة طبيعية . . وإنما سحر قام به « المانجو » الساحر الأسود .

وهم لهذا يأخذون عينة من ثوب الميت وقصاصة من أظافره وخصلة من شعره . . ومفصل من إصبعه الخنصر و يقدمونها لساحر « الباجبودوما » . . فيأخذها الساحر ويحرقها ويضع رمادها فى صفارة سحرية . . يصفر بها وهو يتلو اللعنات على القاتل و ينفخ بها فى الجهات الأربع التى تهب منها الريح . .

ثم يدفن الصفارة فى جذع شجرة ومعها قليل من عقار «الباجبودوما» السحرى ثم يعطى صفارة أخرى إلى أقرب أقرباء الميت لينفخ فيها كل يوم وهو يلعن القاتل ليعجل بالانتقام منه

وتلى هذه فترة انتظار قلقه . . يصفر فيها قريب الميت كل يوم و يلعن القاتل و ينتظر موته بين لحظة وأخرى . .

حتى إذا سمع بوفاة فى القرية سارع إلى العراف يسأله عن المتوفى وهل يكون هو القاتل . .

و يجرى العراف استخاراته . . و يؤكد له أن المتوفى هو القاتل . . وأن « الباجبودوما » أحدث أثره . . والانتقام نفذ . .

وساعتها فقط يفك أهل الميت الحداد و يقيمون وليمة فاخرة يوزعون فيها الخمر على أقارب الميت وأصدقائه . .

ويقوم أكبر الموجودين ليلقى كلمة . . و يتناول فرعا من فروع شجرة البومبيلى المقدسة يغمسه فى الخمر ثم يرش به على قبر الميت وهو يتمتم .

ـ أيه ياروح أمى العزيزة . . لماذا أنت غير راضية عنى . . ولماذا لا ترضى عنى سائر الأرواح . . لقد أديت واجبى كاملا . . وقدمت الهدايا من الحراب على روحك . . وصنعت لك مدفنا مريحا غطيته بالحصى . .

وها أنا ذا مونجورو ابنك.. أشرب الخمر وأسكبها على ثراك .. وأقف لتحيتك وفى يدى فروع البومبيلى المقدسة .. أيه ياروح أمى .. إنما دموعنا هى هذه الخمر .. كونى راضية عنا .. وجففى سحب الامطار .. حتى نستطيع أن نرقص على الأرض الجافة ونحتفل بك ..

وفى نهاية كلمته يجرع جرعة من قصعة الخمر ثم يدلق الباقى على المقبرة لتشرب معه الأرواح .. ثم يقوم من بعده آخر ليلقى كلمة ثانية .. وثالثة . ثم يتقدم أخوة الميت وهم يلوحون بأعواد البومبيلى ويسكبون الخمر على القبر ..

ثم يلقى كل واحد بحصاه فوق القبر حتى ترتفع كومة من الحصى فوق الحفرة .. ويعود الـكل إلى بيوتهم .

وفى حالة موت الحاكم فانه يدفن سرا .. وفى الماضى كانت تدفن معه أحب زوجاته وتـكسر رجلاها وتوضع جثة الميت على رجليها المـكسورتين .. ويملأ القبر بكافة أنواع الاسلحة ثم يهال عليه التراب .

والزاندى يعتقدون أن كل مصيبة تحدث لهم سببها السحر «مانجو» . حينما تموت الماشية فالسبب هو المانجو . حينما يمرض رب البيت فالسبب هو المانجو .. حينما تتلف الزراعة فالسبب المانجو . حينما تتعسر الولادة

مانجو ٠٠حينما لا يكون الصيد موفقا ٠٠ مانجو ٠٠ وكل وفاة عندهم ليست وفاة طبيعية وإنما ما نجو ٠

وكانوا فى الماضى يعاقبون المانجو بالاعدام ٠

كانوا يذهبون لاستشارة العراف ٠٠ فيجلب العراف دجاجة يسقيها من مادة البنجو المخدرة ٠ ٠ ثم يقف على رأسها يتلو تعاويذه وهو يصيح بين لحظة وأخرى ٠٠ إذا كان فلان ابن فلان هو المانجو فلتسقطى ميتة ٠

فإذا سقطت ميتة ٠٠ فإن موتها يكون علامة على صدق الاتهام ٠ ويذهب الاثنان إلى الحاكم ويعيدا أمامه الاختبار . فإذا جاءت النتيجة مؤكدة للاتهام .. فإن الشاكى يصبح فى حل من قتل الساحر . . ولكن الخلاف كان فى العادة ينتهى بدفع غرامة عشرين حربة لأهل الميت .

أما إذا كان المجنى عليه من طبقة الأفونجارا فانهم كانوا يجلبون المتهم بشخصه للعراف ليسقيه شراب البنجو بدلا من أن يسقيه للدجاجة . وكان يطلب من المتهم وهو فى سكرة المخدر أن يجمع عددا من أعواد البوص من على الأرض . . بينما تدق الطبول من حوله طول الوقت . فاذا ترنح وسقط على الأرض فان هذا يكون دلالة على أنه المانجو .. وكان يقتل لساعته .

ومثل هذه الاحكام والطقوس لم تعد تنفذ الآن بعد تدخل السلطات المدنية . . وأصبح يكتفى بالرد على السحر بسحر مثله (الباجبودوما) .

وهناك فئة أخرى من المطببين السحرة اسمهم « الأبفزا » يعالجون المرضى بالتدليك ويداوون الحسد بالعقاقير والأعشاب .. ويقضون نهارهم وليلهم فى الكهوف يسحقون الاعشاب ويطهونها بالزيت والبذور ويتلون عليها التعاويذ . .

ونظراً لمطاردة الحكومات المدنية المختلفة لهذه الفئات من السحرة والمشعوذين . . فانهم أصبحوا يتجمعون الآن فى جمعيات سرية . .

وأكبر هذه الجمعيات جمعية «مانى» وأعضاؤها يزيدون على الألوف وتنظيمها يشبه تنظيم الجمعيات الماسونية . . فأعضاؤها لهم اشارات خاصة سرية للتحية والسلام . . وهم يجتمعون فى محافل . . وأسرار الجمعية العليا لا يعرفها إلا « الأساتذة » رؤساء الفروع والشعب المختلفة .

وهناك اقبال شديد على هذه الجمعية فى الكونغو نظرا للضغط الشديد الذى يلقاه الوطنيون من الحكومة البلجيكية .

* * *

والانحلال الجنسى والعائلى بين طبقة الأفونجارا لا يقابله انحلال مماثل بين بقية افراد الزاندى .

ونظام العائلة فى العادة يخضع لتقاليد صارمة . . فالأخ إذا رأى أخته عارية وهى تستحم بدون الورقة التى تضعها على عورتها فانه يقدم لها هدية تعوضها عن حيائها الذى خدشه . . والاخوات الأولاد والبنات ينامون فى أكواخ منفصلة .

والأخ الأكبر يقوم مقام الاب فى رعاية الأولاد •• وهو فى العادة يقوم بدور الأب الروحى فى كل المناسبات الدينية •• وهو يتقاضى النصيب الاكبر من المهر الذى يدفع لأخته .

ورباط الدم بين الاخوة عامل هام من عوامل التعاطف بينهم ••

وأحيانا يلجأ أفراد القبيلة إلى توثيق صداقاتهم بخلق رابطة دم عن طريق مراسيم خاصة •• فيجلس كل اثنين منهم الواحد أمام الآخر ثم يقوم أحدهما بجرح ذراعه ويغمس فى الجرح فرع من فروع شجرة البانجا . ثم يناوله لزميله •• فيغمسه هذا فى الملح ثم يمصه ويمضغه بينما يفتل الآخر حبلا من ألياف « الداكوا » ويمضى يفتله بينما طرف منه معقود فى شعر صديقه وهو يتمتم مخاطبا دمه الذى أصبح فى معدة صديقه •• وبهذا يتم رباط الدم بين الأثنين •• ويصبح عهدا .

ويقضى رباط الدم الذى ينشأ بينهما أن يتعاونا فى شر الحياة وخيرها . وإذا خان أحدهما العهد فان اللعنة تحل عليه ويموت .



والخطوبة فى الزاندى تبدأ منذ الميلاد .. حينما تولد الطفلة . . يتسابق أولاد القرية إلى خطبتها . . ويقدم كل منهم باقة من فروع السيسيلى إلى الام . . فاذا لم يعجب الام الخطيب فانها تكنس فروع السيسيلى خارج الكوخ . . وتنتظر عرضا آخر يعجبها . . فاذا أعجبها الخطيب فان عليه أن يسارع بتقدم شبكه للطفلة عبارة عن اسورة من الخرز . . ومنذ تلك اللحظة عليه أن يضع نفسه فى خدمة أهل العروس فيعمل فى حقولهم ويفلح لهم الأرض ويرويها وعليه أن يتقدم بهدية من وقت لآخر . . حتى إذا بلغت العروس عامها السادس ذهب يستشير العراف ويسأله . . هل يمضى فى هذا الزواج . . أم ينصرف عنه . . فاذا أشار عليه العراف بالمضى . . فانه يذهب إلى بيت العروس ومعه هدية ثلاث حراب يعطيها لوالد عروسه كقسط أول من المهر . . وكلما تقدمت الطفلة فى العمر أخذتها أمها إلى أهل العريس حيث تبقى هناك مددا متفاوته أقصاها شهر تتعلم فيها فنون الطهى وخدمة البيت على يد حماتها . . وفى العادة تأخذ أم العروس معها هدايا . . من الحبوب والفواكه والدجاج . . وفى هذه الزيارات ينفرد الخطيب بعروسه وينام معها ويغازلها . . ولكن لا يدخل بها . .

وحينما تبلغ عدد أقساط المهر المدفوعة عشر حراب . . تكون العروس فى العادة قد بلغت السادسة عشرة . . فتنتقل إلى بيت زوجها لتتسلم

مقاليد بيتها حيث يقام لها كوخها خاص ويجهزلها موقدها من قوالب الحجارة ويوضع فوقه اناء الطهى . .

وتستمر الحياة الزوجية . . ويستمر الزوج فى دفع أقساط المهر من الجراب . . وتتوقف مواظبته فى الدفع على نشاط زوجته فى الطهى وعلى حسن خدمتها وأخلاقها . . وهو فى العادة يتوقف عن الدفع ويطلقها إذا كانت عقيما.. ويسترد المهر الذى دفعه . . وإذا كانت كل خلفتها من الذكور فانه يسترد نصف المهر

وإذا ماتت دون أن تنجب فعلى أهلها أن يردوا المهر . .

وفى امكان العريس أن يتزوج بدون مهر وذلك بأن يقدم أخته لأهل العروس فى مقابل العروس التى أخذها . .

وحينما يموت الزوج فان زوجته تصبح من حق أخيه . . أو أولاده من أى زوجة أخرى . . فتنتقل إلى فراش الأخ . . أو الابن . .

والتقاليد تحمى العلاقة الزوجية عند شعوب الزاندى . . فالاتصال الجنسى قبل الزواج نادر لأن الخطوبة والعلاقة الزوجية تبدأ فى وقت مبكر جداً ..

والخيانة الزوجية عقوبتها صارمة وحشية . . فالزوجة كانت تجلد

وتشرط بالسكاكين . . والعشيق تقطع يديه وأذنه وشفته العليا وخصيته . :

والحامل فى الحرام تلد فى الغابة ولا تولدها الداية . .

وأمثال هذه العقوبات منعتها الحكومات المحلية الآن . .

ومن الامور العادية الآن أن تهرب الزوجة مع حبيبها و يكتفى الزوج بالحصول على الاولاد . . واسترداد المهر . .

والطهور لم يكن متبعا فى الزاندى . . ولكنه الآن عادة متبعة . . وهم يطاهرون الاولاد بين سن التاسعة والرابعة عشرة . .

* * *

والزاندى كانت تعتمد فى حياتها على الصيد . . وعلى السطو على القبائل الأخرى واخضاعها .

وكانت العادة أثناء الحروب أن تأكل اللحوم البشرية . . لكثرة القتلى اللذى يتساقطون فى الميدان . .

لكن هذه العادة بطلت منذ أكثر من مائة عام . .

وأصبح الزاندى يعتمدون على الزراعة فى معاشهم . .

ولم ينجح الزاندى فى أن يكونوا رعاة . . بسبب ذبابة تسى تسى..
ومرض النوم الذى كان يقضى على الماشية وعلى الرعاة أولا بأول ؛

لكن التاريخ الطويل من الغزوات والحروب.. كانت نتيجته أنتشار لغة الزاندى . . على لسان عدد كبير من القبائل . .

وهى لغة مفرداتها قليلة وسهلة . .

والأب فى هذه اللغة اسمه بوبا . والام نينا . . والجدة تيتا . . وهى ألفاظ مالوفة لآذاننا . .

ومن الاشياء التى خلفها الاستعمار الانجليزى عدد من القواميس والدراسات الوافية لهذه اللغة . .وقد ظن الانجليز أنهم بدراستهم للزاندى . . سوف يستطيعون النفاذ إلى عدد كبير من القبائل الأخرى . . عن طريق اللغة المشتركة . .

وكعادة الاستعمار وضع فى مقدمة جيوشه . . مدفعية من المبشرين . . وكتائب كاملة من الإرساليات . . تعلم الانجيل بلغة الزاندى . . وتعلم معه الاشياء الأخرى التى يريدها السادة الانجليز . .

ومن صراع المذاهب . . فى الغابة . .

ومن صدام الحياة والموت بين المستعمرين والوطنيين .

ومن خليط الحضارة الجديدة الوافدة . . والبداوة الأولى . نشأ من النيام نيام . . شىء جديد . . غير النيام نيام . . وغير الزاندى . . الذى فى الكتب . . هو الواقع الجديد الموجود حاليا . .

وحكايته طويلة . .

كان الزاندى يتبادلون فيما بينهم عملية بدائية . . هى الحديد كانوا يستخرجون الحديد و يستخلصونه من خاماته و يصهرونه و يشكلونه فى أسلحة مختلفة . . وكانت الصعوبات البالغة التى يعانونها فى الحصول عليه تجعل منه شيئاً نادراً . . غالياً مثل الذهب .

ثم جاء الاستعمار .. وغمر الإنجليز الأسواق بالمصنوعات الحديدية . . عربات من الحديد وقضبان من الحديد . . ومواسير من الحديد .. وأسلاك من حديد .. ومعدات هائلة كلها حديد فى الحديد . .

وأصبح الحديد .. خردة .. ملقاة على الأرض فى كل مكان :

وكانت نتيجة هذا التضخم الهائل فى العملة الحديدية إن هبط سعرها للتراب .. ثم أفلست تماماً . و بالتالى أفلست الطبقات الحاكمة «الافونجارا» التى كانت تقتنيها . .

ثم حطم الاستعمار البقية الباقية من هذه الطبقة بتحطيم امتيازاتها . . فأصدرت السلطات فى عام ١٩١٥ وثيقة المرأة التى حرمت تحريمها باتا التزاوج الداخلى بين الأخوات فى طبقـــة الافونجارا . . وحرمت تبادل الزوجات . . وتوريث الزوجة لأخى الزوج .. وزواج الطفلة .

وأصدرت قوانين أخرى بعدم قتل الزوجة التى تخون زوجها و بمنع

قطع أذن الزانى أو خصيته أو أطرافه كما كان متبعاً .

وبهذا فقدت الطبقة الحاكمة سلطاتها المادية وسلطاتها المعنوية فى وقت واحد .. وانهارت من أساسها .

وسادت مرحلة من التسامح الجنسى أدت إلى الانحلال وانتشار الأمراض التناسلية . . وأصبحت معظم القضايا التى تعرض على « الكاليكو » هى قضايا خيانات زوجية .. ويسمونها عندهم قضايا « كسر البيت » .

وانخفضت المواليد بشكل ذريع . . وأصبحت رؤية الأطفال ظاهرة نادرة . . نتيجة الأمراض التى استشرت بدون رعاية طبية . . ونتيجة الانهيار الكامل والفجائى فى القيم المادية والمعنوية ونتيجة التعب.. واليأس من كل شىء .

وفى السنوات التى أعقبت تلك الفترة . . أثناء الحكم السودانى المحلى . كانت القضية التى تشغل البال .. هى تحسين حال هذه الجماعات البدائية التى أشرفت على الانقراض . وكان الأمر متروكا فى البداية للمتحمسين .. وللمبشرين بالمسيحية . . والمبشرين بالإسلام . . الذين ظنوا أن الحل هو الاصلاح الدينى .

وللحقيقة والتاريخ . . لم تفعل محاولات الاثنين شيئاً يذكر بالنسبة لرفع مستوى هذه القبائل . . وانتشالها حضاريا . .

والذى حدث أن المبشرين المسيحيين كانوا أدوات طيعة فى يد المستعمرين . . ولم يبشروا بالمحبة بقدر ما بشروا بالكراهية و بثوا الفرقة والانفصال بين جنوب السودان وشماله . .

وكانت خطة الاستعمار هى ضم جنوب السودان إلى أوغندا وكينيا وتنجانيقا . . إلى العزبة . . والابعدية التى يمرحون فى خيراتها . .

وكانت آخر محاولة من هذا النوع هى التى قام بها القس سترانيينو الذى ذهب إن الفاتيكان وتقدم بشكوى إلى البابا . . و بشكوى أخرى مماثلة إلى الأمم المتحدة مطالباً بفصل جنوب السودان من شماله بحجة الاضطهاد الدينى .

وكانت ثمرة هذا التبشير هى المذابح التى حدثت فى الجنوب منذ سنوات وراح ضحيتها الكثير من أبناء السودان .

وللحقيقة والتاريخ . . لم يفعل المبشر الإسلامى شيئاً يذكر . . وكان هم الشيخ الذى يبعث إلى هذه المجاهل الجنوبية . . أن يسأل عن مرتبه . . و يطمئن أولا على تسهيلات السكن والأكل والشرب والتحويش التى ستتوفر له . وأهم من هذا . لم تكن المشكلة التى تعيش فيها هذه القبائل مشكلة دينية . . وإنما كانت أكبر بكثير . .

كانت هذه القبائل تعيش فى حالة انفصال تاريخى كامل .

وكان لا بد أن تتحقق ظروف تاريخية متقدمة لتقوم بينها حضارة متقدمة .

وكانت الخطة هذه المرة هى إحداث إنقلاب اقتصادى فى المنطقة وقلب وسائل الإنتاج وعلاقات الانتاج للوصول إلى تغيير المنطقة حضارياً .. وتحويلها من حضارة غابة إلى حضارة مدينة ..

كان التبشير المطلوب هو تبشير اقتصادى ..

* * *

وقامت فكرة المشروع الاقتصادى المعروف « بمشروع الزاندى » على زراعة محاصيل نقدية مثل القطن والسمسم وقصب السكر . . وتصنيع هذه المحصولات بانشاء محالج ومناسج ومعاصر .. وصناعة النسيج والزيوت والصابون والسكر . . ثم تسويق هذه المصنوعات بإقامة متاجر وأسواق محلية وتصدير الفائض إلى كافة أرجاء السودان . .

وأشرفت الحكومة على المشروع وقدمت المعونة الزراعية والخدمات الصحية وأنشأت مدينة صناعية كاملة فى « أنزارا » ضمت المناسج والمحالج ومعاصر الزيوت ومناشير الخشب . . ومدت الخطوط التليفونية من إنزارا

إلى ميناء جوبا ..

وبدأ تنفيذ المشروع منذ عشرين سنة .. وصادف عقبات هائلة .

* * *

وكانت أول عقبة .. هي مشكلة الاسكان .

والزاندي لا يعرفون في سكناهم نظام البلدة .

كل أسرة تسكن وحدها . وبين كل أسرة والثانية كيلو متر من الأرض الفضاء أو أكثر .. والأرض التي تحيط بالأسرة هي ملكها عرفا بما فيها من مزروعات وحيوانات للصيد وأسماك « وانقونقو » ..

« الأنقونقو حشرات مثل النحل يصطادها الزاندي ويأكلونها مشوية وأحيانا نيئة .. ويستخرجون منها نوعا من الزيت ..

والأسرة تغير سكنها في العادة بعد انتهاء موسم الزراعة فتنتقل إلى مكان آخر وتنتهي بذلك ملكيتها لكل الأراضي التي كانت تزرعها وتصبح من حق أي أسرة أخرى تسكن مكانها ..

ولهذا السبب تعتبر قبائل الزاندي قبائل رحل ، بالرغم من اعتمادها على الزراعة .. وتعتبر الملكية بمعناها الرأسمالي غير معروفة بينها ..

والملكية فى هذه القبائل هى ملكية عمل . . « الأرض لمن يفلحها » وليست ملكية مخصصة « الأرض لمن يملكها »

ونتيجة لهذا التخلخل السكنى أصبح من الصعب توفير الخدمات المدنية لهذه القبائل لأنها تسكن متفرقة متباعدة فى أسر مبعثرة . . وعلى من يريد أن يوفر لها خدمة أن يمد كل أسرة بطبيب خاص وإجزخانة ومعاون زراعى وطلمبة مياه ووابور نور . . وهذا مستحيل .

وكان لابد أن تبدأ الحكومة من البدايه . . أن تجمع هذه الامرات المتباعدة فى قرى . . ثم تركز الخدمات فى هذه القرى .

وكان اقناع هذه الاسرات بالتساكن معا . . عملية غاية فى الصعوبة . . وفشلت مشاريع الأسكان أكثر من مرة .

بين عامى ١٩٢١ ، ١٩٢٦ أخرج الأهالى من أكواخهم التقليدية واسكنوا جماعات فى قرى متجاورة لمراقبة مرضى النوم بينهم . . فانتشر بينهم السخط وهجروا أراضيهم وزراعاتهم وهربوا إلى الغابة . .

وأعيدوا مرة أخرى إلى تجمعات سكنية على الطريق العام فلم تثمر هذه المحاولة الثانية سوى انتشار الفوضى والذعر والأمراض التناسلية

وآخر محاولة منذ سنوات كانت انشاء قرى نموذجية فى ضواحى

يامبيو حاول فيها المشروع أن يلتزم بالذوق المحلى لأهل البلاد . . فأنشأ القرية على شكل هلال ونظم استعمال الحقول بطريقة تتفق مع نظام الزاندى فى الزراعة ، . وأعطى كل أسرة أربعين فدانا لتزرعها . . وهو إغراء يسيل له لعاب أى أسرة من فلاحينا . . ولكن بالنسبة للزاندى . . لم يكن لهذا الإغراء أى قيمة فالزاندى لا يعرفون هذا النوع من الملكية ولا يهتمون بها . . ولا يفهمون معنى لأن يكدس الانسان ملكياته ويراكمها . . ولا أن يطلب من الدنيا أكثر من حاجته .

لا يفهم الزنداى معنى لأن يزرعوا محصولا مثل القطن . . لا يأكلونه ولا يشربونه . . لمجرد أنه محصول يباع وله قيمة نقدية ... وما حاجتهم إلى النقد ؟ ؟ .

وكانوا ينظرون إلى الاوراق النقدية التى يقبضونها بأحتقار . . ولم يكونوا يفهمون أن هذه الاوراق النقدية لها قدرة على التبادل المطلق . . وأنها يمكن أن تتحول إلى أى شىء يرغبون فى شرائه من السوق . .

وظلت زراعة هذا المحصول العجيب . . وجمعه وحمله مسافات طويلة إلى محطات الاستلام ، . فى نظرهم . . نوعا من السخرة .

وكانوا يعبرون عن هذا بقولهم . . « جا أير انجبى سونجبى » هذا عمل من أعمال الحكومة .

ولجأت السلطات إلى فرض « الضريبة الشخصية » على الزاندى واشترطت دفعها نقدا لـكى ترغم القبائل على السعى وراء العملة النقدية وكانت عقوبة التخلف عن هذه الضريبة هى السجن الطويل . . ولـكن النتيجة كانت عكسية . . فقد اقبل الزاندى على السجون أقبالا شديدا إذ وجدوا فيها كل ما كانوا يفتقدونه . وجدوا وجبات الاكل المنتظمة . والامان فى رحاب الحـكومة .

وكان الواحد منهم إذا أنتهت فترة سجنه يركبه حزن شديد ويلح فى الرجاء ليبقى فى السجن .

والغيت الضريبة لعدم جدواها .

وظهرت مشكلة آخرى خطيرة . . هى عدم احترام العامل البدائى للمواعيد وكان العمال يتغيبون عن المصانع بالعشرات . . بالساعات و بالايام . .

وخصصت منحة شهرية كجائزة تمنح لمن يواظب عشرين يوما بلا انقطاع عن العمل .

ولـكن العامل لم يكن يفهم الزمن كما نفهمه . . لم يكن يعرف من دنياه إلا الليل والنهار . . أما الساعة . . والدقيقة . . والثانية . . فهى

أشياء لا يستطيع أن يتصورها وماذا تعنى ساعة . . أو دقيقة . . أو ثانية .
وماذا تعنى العجلة . . والسرعة . . ولماذا السرعة . . ولماذا العجلة ! ؟ .

ومن ناحية أخرى كان اغراء المال فى المصنع لا يعوض هذا العامل عن
سعادة أخرى اشد اغراء هى سعادة الانطلاق فى الغابة للصيد والرقص
والغناء .

ولهذا كان العمال يتركون المصانع جماعات فى مواسم الصيد للانطلاق
فى الغابة . . ويتركون أجورهم ويفضلون عليها لذائذ المرح والرقص
والصيد .

وثارت مشكلة أخرى هى استخدام الحيوان فى النقل .

والزاندى لا يعرفون الحيوان إلا صيدا يؤكل . . أو وحشاً مفترساً
لا تؤمن له جانب . . ولا عهد لهم باستئناس الحيوان .

وهم يحكون هناك حكاية سلطان الدنكا الذى أهدى سلطان الزاندى
بقرة حلوبا فكان السلطان يأمر بحلب لبنها فى حفرة ويواريه التراب

وقد ثارت مشكلة أستئناس الحيوان من جديد حينما فكر المشرفون
على المشروع فى استخدام الحمير للنقل . . وجلبوا اربعة حمير من «كابويتا»
تكاف نقلها خمسين جنيها . . وكان يوم قدومها إلى انزارا يوما رهيبا .

فقد ساد الذعر بين الزاندى وفروا هاربين من الحميروهم الذين يقابلون الاسود و يصارعونها وجها لوجه .. و بعد محاولات متكررة لاقناعهم . بدؤوا يقتربون منها على حذر . . وكانوا يزغرون اليها بجانب عيونهم وهى ترعى فى الحقل .

وحينما بدأ استخدام الحمير .. اتضح أن هنالك عقبة ثانية . . فالحمير التى شدت إلى العربات رفضت أن تتحرك ووقفت صامتة . . ولم يستطع أحد أن يعلو ظهرها . . فما كان أحد يعلوها حتى تجندله على الأرض .

وهكذا وقف المسئولون حائرين .. بين اقناع الحمير واقناع الآدميين .

عقبات كثيرة مثل هذه العقبات وغيرها .. اعترضت المشروع .

ولكن المشروع استمر

وعلى مدى عشرين عاما . و برغم العقبات . . استطاع أن يحقق الكثير لأن ارادة الوف العاملين كانت تسنده .

الحكام العسكريين فى مناطق الجنوب . . كانوا أكثر من مجرد رجال عسكريين .. كانوا روادا وطليعة . وكانوا يكافحون فى مقدمة الصف لتغيير المنطقة .

و باحثون ومفكرون من السودان . هاجروا إلى الجنوب ووضعوا الدراسات والمؤلفات والكتب ومن أهم هذه الكتب — كتاب

« التغير الحضارى للدكتور محيي الدين صابر » ويعتبر مرجعا من أهم المراجع فى تطور المنطقة .

وبالعمل الدائب . . وبالصبر . وبالاصرار . حدثت المعجزة . وتغير وجه الغابة.

* * *

وحينما تتجول الآن بعينيك فى هذه المجاهل .. فانك تكتشف أن أشياء كثيرة قد تغيرت .

اختفى العرى من الأكواخ ..

وأغلب الزنديات الآن يلبسن الثوب كما تفعل الشماليات تماما .

وانتشرت اللغة العربية انتشارا واضحا . . وأصبحت لغة يومية لمعظم الذين يعيشون فى التجمعات المدنية .

وارتفع مستوى حياة الزاندى ارتفاعا ملموسا فى مأكلهم وملبسهم . وأقبلوا على شراء سلع عصرية جديدة . مثل البسكليت . والبطاريات .

ودخلت زراعات نقدية جديدة كالبن والارز والشاى والدخان . وبعض الصناعات الجديدة كتعليب الفواكه .

وبلغ المزروع من الارض فى المشروع ٦٠ ألف فدان .. يقوم المشروع بتصنيع ثلثيها .

وتضاعف عدد المدارس فى الجنوب فأصبحت أكثر من أمثالها فى الشمال .

واشترك الزاندى كغيرهم من الشعب السودانى فى الانتخابات العامة لأول برلمان سودانى عام ١٩٥٣ .

وأضرب عمال الزاندى عام ١٩٤٥ مطالبين برفع أجورهم .

وتغير نظام الملكية القديم . . ودخلت فكرة التملك الفردى المخصص .

الغابة تحولت إلى مدينة .

العلم دخل الأكواخ .

المداخن الرشيقة أصبحت أطول قامة من الأشجار الباسقة ..

الصناعة حولت الفواكه إلى علب وكومبوت ومربى .. وحولت الأشجار إلى طقاطيق .. والتماسيح إلى شنط سيدات .. والنمور إلى شباشب ..

والسود الذين كانوا عرايا لبسوا بنطلونات .

تقدم كبير .

لقد أعطت المدنية الكثير لهؤلاء البدائيين .

ومع هذا .

لو اننا نظرنا إلى هذه الأمور بدون التحيز لمقاييسنا ومدنيتنا . ولو أخذنا المسائل بشكل أكثر حيادا .. لوجدنا أن أن هذا التقدم كان له ثمن . وأن هؤلاء البدائيين قد دفعوا الكثير فى مقابل هذه الخرقة من القماش التى وضعوها على أبدانهم .

ولو تأملنا حياة هؤلاء البدائيين لوجدنا الكثير من همجيتهم مظهرا من مظاهر البراءة أكثر منها مظهرا من مظاهر الهمجية .. فالعرى الذى نتباهى بأننا خلصنا الرجل البدائى من وصمته .. هو فى الحقيقة وصمة لنا نحن .. خيالنا الذى يشتعل بالجنس واللذاذات الحسية هو الذى جعل من العرى .. عورة . . أما الرجل البدائى فهو يأخذ العرى ببساطة و براءة وخلوص نية . . و يتعرى كنوع من التكيف مع بيئته الاستوائية الحارة . . ولا يخطر على باله مسائل جنسية أو لذاذات حسية . وهو فى الحقيقة أقل منا افراطا بكثير فى حياته الجنسية . . فهو لا يقرب زوجته إلا مرتين فى الشهر . . وهو لا يقربها أبدا وهى حامل . . وهو ينقطع عنها سنة . . وفى بعض القبائل سنتين بعد الولادة . . وهى أشياء أشبه بالصوم الجنسى .

ونحن عرفيا نغطى أعضاءنا التناسلية ومع ذلك نستخدم شفاهنا كأعضاء تناسلية وأكثر .

نحن جعلنا من اللبس فضيلة . . ولكنها فضيلة من فبركتنا مثل الاقمشة التى صنعناها . . وهى فضيلة تشهد على خيالنا المذنب بقدر ما تشهد على براءة هؤلاء البدائيين .

وتعدد الزوجات بين هذه القبائل لم يكن أبدا شاهدا على همجية الرجل . . فالمرأة فى هذه القبيلة لم تكن أبدا سجينة البيت قليلة الحيلة كما هى عندنا . . وانما كانت دائما عاملة . . كتفها بكتف الرجل فى كل مكان . . وحرة اقتصاديا مثله . . وفى الزاندى تنفق المرأة على البيت. لأنها هى التى تزرع الحقل وتجمع المحصول وتحمله إلى محطات التسليم وتأخذ ثمنه بينما يتمدد الرجال معظم الوقت تحت ظلال أشجار المانجو يدخنون .

والزواج بأكثر من واحدة لا يتم برغم الزوجة ولكن برغبتها ومشورتها . . والزوجات فى العادة يتنافسن أيهن التى تجمع المهر قبل الأخرى لتقدمه إلى رجلها ليتزوج به زوجه جديدة . . لأن معنى زوجة جديدة . . أيدى جديدة تعمل معها فى الحقل .

تعدد الزوجات لم يكن علامة همجية . . وانما وسيلة بقاء لقبائل

ضعيفة مهددة بالفناء والأنقراض تبحث بفطرتها عن نسل بأى طريقة وتبحث عن وسيلة للاكثار من الايدى العاملة . . وهو بهذا المعنى فضيلة . . فضيلة حفظ النوع ذاتها .

والديانات البدائية ليست ديانات وثنية . . وإنما هى جميعها ديانات متقدمة . . فيها ادراك رفيع لمعانى الربوبية . . وفيها تصور رحيم لآخرة ترفرف فيها الأرواح سعيدة على ذرى الجبال لا عمل لها سوى استدرار الرحمات على الأرض .

والمجتمع البدائى يتبادل قيمة صادقة هى قيمة العمل . . فأفراده يتقايضون ويتواهبون ويتبادلون الخدمات ولا يعرفون الاجر . . فالواحد منهم يعطى خدمة مقابل خدمة لامقابل عملة نقدية . . والملكية بينهم ملكية عمل . . كل واحد لا يملك سوى عملة .. يعطى منه على قدر طاقته ويأخذ على قدر حاجته . . دون أن يعرف الاكتناز أو الادخار . . أو تكويم ما يملك فى رأس مال وثروة . .

والضمانات الوحيدة بينهم هى التعاون والتماسك فى أسر وقبائل ذات تقاليد .

لا فردية .

لا أفراد يتركون لحالهم يشحذون ويموتون جوعا .. وإنما كل القبيلة تمسك بعضها بدستور صارم من الحقوق والواجبات .

واختلاط الجنسين هو القاعدة .. والحرج الجنسى بمعناه المتزمت غير معروف .

والمصير الذى ينتظر الجميع بعد الموت .. هو صورة مرحة .. لحياة روحية .. تمرح فيها الارواح بين الينابيع والجداول .

ونتيجة لهذه الحياة المفعمة بالبراءة .. انتفى الشعور بالهم والخوف من المستقبل .. وانتفى الحزن والقلق .

والنتيجة انك لم تكن تجد فى الغابة الوجوه النكدة المربده بالهموم .. ولا الوجوه الكشره العكرة التى تراها فى المدينة.. وانما كنت ترى وجوها ضاحكة بسامة فياضة بالمرح وتشاهد حلقات يومية من الرقص والغناء تدار فيها كؤوس الشراب وترى الدعابة والرقة وحب الغرباء وتلمس الطبيعة المسالمة .

مجتمع لم تكن تنقصه الاخلاق .. وإنما كان ينقصه العلم .

ومع ذلك فالعلم وما استحدثه من صناعة ومدنية .. لم يكن كله خيرا على هذا المجتمع البدائى .

الصناعة أقبلت على ساكن الغاب ومعها شرورها وتعقيداتها . . فقد تسلمته طفلا الهيا بسيطا يعيش على الرقص والغناء ولا يطلب من الرزق أكثر من حاجته ولا يفهم من الملكية إلا الملكية لعرق جبينه وعلمته الطمع والاكتناز والخوف والتأمين على الحياة فى الشركات وفتح الحسابات فى البنوك وتكويم الثروات والبحث عن ضمانات لهذه الثروات بتكويم ثروات أخرى بجانبها . . وعلمته الهم والحزن والقلق . . وعلمته الاحساس بوطأة الزمن الذى يأكل عمره .. وأخذت بيده إلى حياة أحسن .. ولكن فى نفس الوقت حياة أتعس . .

أنه يتقدم .

لكنه يتقدم بثمن .

وليس لنا أن نشعر بالكثير من الغرور لاننا أعطيناه من علمنا . . فاننا أيضا قد سلبناه الكثير .

وقد دفع لنا ثمن هذه الخطوط من الكهرباء التى مددناها إلى أكواخه المظلمة . . من صميم نور قلبه . . ومن صميم براءة روحه . . ومن صميم سعادته . . وضحكاته .

الشيلوك

كانت الباخرة تسير ببطء .. كأنها سلحفاء تمشى على بطنها .. وأنا مغمى على من فرط الحرارة فى علبة السردين التى أنام فيها .. والمروحة تزن على رأسى بلا جدوى .. ولا أجرؤ أن أفتح بابا أو شباكا فأسراب البعوض تحوم فى أفواج كثيفة فى الخارج ولا أكاد أخرج إصبعا حتى تهجم عليه فى وحشية. وكلها من بعوض الأنوفيل حامل الملاريا ..

وكانت الملاريا قد بدأت تكتسح المركب فالريس حرارته ٤٠ وإثنان من البحارة يعانيان رجفة الحمى .. وسائح هولندى يهذى فى غرفته منذ يومين .. وأقراص الكلوروكين والكاموكين منتشرة فى أفواه الركاب كالبومبون .

وكنت أفتح عينى بين لحظة وأخرى .. وأنا فى ضباب النوم .. فأرى جزائر من النور تسبح طائرة على جانبى السفينة ..

هل أهذى أنا الآخر ..

وأفرك عينى .. وأحملق حولى جيداً ..

ما زالت هناك تلك الجزائر من النور ..

إنى لا أحلم ..

إنها جزائر من نباتات الهياسنث سابحة فى التيار تضيئها أنوار الباخرة على الجانبين ..

وكان قمر خط الاستواء يبدو شاحبا يغلفه الضباب والبخار وخطر لى أن أصعد على سطح الباخرة لأشاهد الطبيعة فى تلك الساعة من الليل ..

ودهنت وجهى وأطرافى بطارد البعوض .. وخرجت التمس الهواء ولم يكن ثمة هواء .. وإنما رطوبة راكدة تتكاثف على الأهداب وعلى الجلد .. وهواء ثقيل له ضغط ..

ولم تكن الطبيعة نائمة كما تصورت .. وإنما كانت صاحية جياشة بالحركة والحياة ..

أسراب الفيلة تملأ المراعى .. وتماسيح النيل الضخمة تمرح حول الباخرة وقطعان سيد قشطة تستحم .. وآلاف الكروانات والبلابل والعصافير والنسور والطيور الملونة تحلق على ارتفاعات قليلة .. وجيوش الحباحب المضيئة تلمع كسنون الابر فى الظلام ..

وحرب الطبيعة ناشبه على اشدها .. الحباحب تأكل البعوض والضفدع يأكل الاثنين والأسماك تأكل الكل ثم يذهب الجميع فى جوف التمساح فى صمت بينما يطل القمر شاحبا يغلفه الضباب والبخار .

ومن وقت لأخر يرشق الهدهد منقاره فى الطين ليخرج بدودة كبيرة .
ويغطس طائر اللقلق فى الماء لتخرج وفى فمه سمكة .

وترتفع هامات السفانا العالية واشجار البردى وسيقان الهياسنث على الشطئان لتحجب ما يجرى فى الداخل .. لا ينداو عنها صوت الاحينما يتخللها ثعبان فيخشخش بين أوراقها وهو يسعى ليرد الماء .. أو يتمطأ فيل فتهوى كتل من هذه النباتات المتشابكة وتتفتت ويجرفها التيار فى جزائر عائمة صغيرة تنعكس عليها اضواء الباخرة فتلمع فى الظلمة .

كل صنوف الحياة كان يبدو عليها الانتعاش فى هذا الجو الساخن . فهى تتلاقح وتتوالد وتتكاثر وتأكل بعضها . وتنقنق وتزقزق وتشقشق وتفح وتنبح وتعوى وتملا المستنقعات اللزجة وتشرب مياهها الراكدة فى شهية كالحساء وتنمو وتبلغ احجاما عملاقة .

اشجار الادليب كانت تصطف فى طوابير شاهقة الطول على الجانبين . وثمار الإدليب كانت تتساقط فى الماء .. كل ثمرة فى حجم البطيخة (وهى من فصيلة الدوم) .. اشجار البردى كانت تنمو فى وحشية حتى تسد الافق .

التماسيح كانت تشق الماء شهباء اللون . . كالحة . . ضخمة . . كالبوارج الحربية .

كانت هذه البيئة الساخنة هي البيئة المختارة لهذه الفصائل من الحيوان والنبات .. شيء واحد لم يكن يظهر إلا نادرا في هذه المتاهات الاستوائية الشاسعة .. هو الانسان .

كل بضعة أميال كان يظهر واحد أو اثنان أو ثلاثة من الزنوج .. عراه .. يحملون الحراب .

وكلهم من قبيلة الشيلوك .

والشيلوك .. والدنكا .. والنوير .. هي القبائل التي يلقاها المسافر في هذه المنطقة من النيل بين كوستي والملكال و بور وجوبا .

وزنوج هذه القبائل يسيرون عرايا .

واحيانا تجد الواحد منهم عريانا « ملط » ولابس كرافته .

وهم ينظرون إلى المدنية بهذه الطريقة من التريقة فالثياب في نظرهم مجرد تقليعة بلا وظائف .. مجرد زوائد لا معنى لها .. كزر الطربوش .

ومعظمنا كنا قد بدأنا نعتنق هذه الفلسفة .. فقد كنا نسير على سطح المركب انصاف عرايا باللباس لا فرق بيننا و بين الشيلوك إلا نصف متر الدبلان الذي يقتضيه الحياء التقليدي .. وأقول التقليدي .. لأن معظمنا لم يكن مقتنعا بحكاية الحياء هذه .. ولولا عادات ثلاثين عاما ربما كنا القيناه وراءنا بنصف المتر الدبلان أيضا .

ولكن الشيلوك لم يكونوا روادا فى مسألة الثياب وحدها •• ولكنهم كانوا روادا فى كل ما هو بدائى •• وكانوا يرفضون بشدة كل ما هو مدنية •• و يتمسكون بكبرياء بتقاليدهم •

ومن الدراسات التى قرأتها عن هذه القبيلة •• كان يبدو انها قبيلة شديدة التدين •• شديدة التمسك بعباداتها وتقاليدها •

وديانة الشلوك ديانة وحدانية •• فهم يؤمنون باله واحد يسمونه «جوك» ولكن فهمهم لهذا الاله الواحد غامض ومضطرب فهو فى نظرهم خفى وموجود فى كل مكان وخالق للسماء وللارض ولكن مشيئته لا تنفذ إلا عن طريق « نيا كانج » •

« ونيا كانج » هوملك الشيلوك القديم الذى انشأ قبيلة الشيلوك • وهو فى اعتقادهم لم يمت وانما تحول إلى ريح واختفى • ثم حلت فيه روح « جوك » •• واصبح ممثلا لمشيئته على الأرض •• ولهذا فهم يصلون له و يقيمون له المعابد و يقدمون له القرابين •

ونيا كانج متصل اتصالا يوميا بحياة الشيلوك •• أما «جوك» أو الله فهو شىء مجرد و بعيد ومتصل أكثر بالكون كله •

ومعابد النيا كانج هى وحدات سكنية عادية يعتقد الشلوك أن روح

النيا كانج تسكنها .. وتتألف الوحدة من خمسة أو ستة اكواخ مثل اكواخ السكن العادية التى يسكنها الشيلوك مع فارق انها أكثر اتساعا ونظافة و يقوم على خدمتها كهنة من عجائز الشيلوك ومعهم زوجاتهم الطاعنات فى السن .. ومحرم دخول هذه المعابد لأى فرد من أفراد الشعب فيما عدا هؤلاء الكهنة .. وعلى من يدخلها من النساء والرجال أن يكون صائما صياما تاما عن الاتصال الجنسى .

والكوخ الاول من هذه الاكواخ يخصص لنزول روح نيا كانج وفيه توضع اسلحته وادواته وقيثارته وطبوله وجلود قرابينه وعلى بابه تغرس قرون الاضاحى التى قدمت له .

والكوخ الثانى يخصص للماشية التى تخص المعبد .. والثالث لخزن الحبوب وتخمير المشروبات .. والرابع للكهنة والخدم والعبيد .. والخامس لتقضى فيه روح نيا كانج حاجتها وتستحم وتتبول .. والسادس لتنزل فيه روح « نيكايا » والده نيا كانج .

و يرتل الكهنة فى صلواتهم قائلين .

يا الهنا .. نجنا .. بيدك وحدك نجاتنا .. انت تملك السماء والأرض والنجوم .. و بمساعدة نيا كانج تقوى اذرعنا عند الحرب .. وتحفظ

لنا ماشيتنا . . وتبعد عنا المرض والجوع . . كل ابقارنا مبذولة من أجلك .. وكل دمائنا فداؤك .

وهم يذبحون الثيران التى تقدم قرابين ويأكلون لحومها ويرمون بعظامها فى النهر . . أما الابقار فيحفظونها فى حظيرة المواشى بالمعبد .

واهم الطقوس الدينية طقوس المطر . . وطقوس الحصاد .

وفى يوم الاحتفال بطقوس المطر تدق الطبول فى ساحة المعبد التى تكنس وتنظف للمناسبة ويجتمع الشباب للرقص بالحراب والسيوف وللغناء لروح نيا كانج ثم يؤتى بثور القربان ويضع الكاهن فى كفة بعضا من ماء النهر ويبصق فيه ثم يرش به الثور ثم يطعنه طعنة نافذة فى أعلى الفخذ . . ويتركه ليدور فى الساحة حتى يخر ميتا .

وهم يستبشرون إذا اتجه الثور المحتضر إلى النهر أو إلى كوخ نيا كانج . ويحتفظ الكهنة بالرأس والسيقان والاحشاء ليأكلوها .. ويلقون بالعظام فى النهر .

ويعتقد الشيلوك أن روح نيا كانج يمكن أن تحل فى عديد من الحيوانات مثل الزراف والثعبان والتمساح وطائر الاكاك .. وحينما يرى الشيلوكى فراشة تقف على باب المعبد يصرخ هاتفا .. هذه روح نيا كانج .

وأى شجرة تنبت بالقرب من معبد نيا كانج تقدس ولا تمس و يعتقد انها من أخشاب مقبرة نيا كانج .

وصيد التمساح محرم لأن الشائع أن روح نيكايا أم نيا كانج تحل فيه وهم يعتقدون أن روح نيكايا تعيش فى الماء ولذلك يلقون بالشاه التى يقدمونها قربانا لروحها وهى حية ومقيدة من أرجلها فى الماء .. وكل ملوك الشيلوك مقدسون على مثال نيا كانج . . ولهذا فهم يدفنون وتقام لهم معابد على مثال معبد نيا كانج لكن أصغر حجما .

والموتى من الاجداد يعاملون معاملة الملوك و يعتقد أن فيهم روح « جوك » وانهم على اتصال بالله .

وارواح الاجداد لا تنفصل فى ديانة الشيلوك عن أرواح الملوك أو روح نيا كانج أو روح « جوك » .

و يتشاءم الشيلوك من الملك الذى يطعن فى السن ويقعده المرض و يعتقدون أن ما يصيب الملك من مرض وشيخوخة لا يلبث أن يحل بالقبيلة كلها .. و كانوا فى الماضى يقتلونه .

والقرابين البشرية غير مالوفة عند الشيلوك ولكنها كانت تقدم فى أحوال نادرة حينما تفشل الطقوس العادية فى استدرار المطر .

وكان المتبع أن يقتل الضحية وتدفن خصيته (وهى رمز الاخصاب) فى مجرى ماء . وكان هذا القتل يتم فى سرية و يقوم به الطبيب الساحر .

والاطباء السحرة نوعان . . «أجاجو» وهم احباب الله الذين يسعون فى الخير وفى شفاء المرضى . . « والجالايات » وهم محترفو السحر الاسود الذين يسحرون بالضرر والشر .

ومحترفات السحر من النساء اسمهن « الدايات » .

والساحر الذى يبدأ الاشتغال بالسحر ينفصل عن زوجته ولا يجتمع بها و يتخلص مما يملك من ابقار و يعيش فى وحدة وخلوة وتقشف . . وبالمثل المرأة « الداية » التى تشتغل بالسحر .

و يقال بلغه الشيلوك أن ما هو جسدى فى الساحر ينكمش وأن الروح تتلبسه وتنتشر فيه .

والشيلوك يؤمنون بالحسد والعين الشريرة . . والسحرة يعالجون الحسد باحضار شاه وفقء عينيها بقضبان محمية من الحديد مع تلاوة الادعية والتعاويذ . . وتكون نتيجة هذه التعاويذ أن يصاب الحاسد بالعمى ويشفى المريض من الحسد .

و يعتقد الشيلوك فى أشباح وعفاريت بشريه غير طبيعية تسكن النهر

والغابة ويعتقدون فى ثيران ليست لها آذان وليست لها قرون تعيش فى الدغل .. ولـكنهم لا يعلقون أهمية كبيرة على ذلك .

ويعيش ملوك الشيلوك فى اكواخ عادية لا تمتاز بشىء عن اكواخ الشعب .. وبنات الملوك لايتزوجن إذ أن زواجهن من داخل العائلة الملـكية محرم .. وزواجهن من خارج العائلة الملـكية بالأشخاص العاديين لا يليق ببنات الملوك ..ولـكن بامكانهم أن يستمتعن بالحب مع من يشأن من الرجال بشرط ألا يحملن منهم ..

وزوجة الملك تقدم الطعام لزوجها وهى راكعة على ركبتيها ووجهها ملتفت بعيـدا عن الملك ويدها تغطى أسفل وجههـا .. وبعد أن يأكل تصب على يديه الماء .. وهى مازالت تشيح بوجهها .

ومحرم على أى فرد أن يجلس فى حضرة الملك وهو ناظر إلى وجهه : على الجميع أن يشيحوا بوجوههم ويحجبونها بأيديهم..

وعلى مشايخ القبائل الذين يعينهم الملك أن يقسموا يمين الولاء بين يديه ثم يمسك كل منهم بحربة الملك ويقبلها ويلعقها بلسانه ويضغطها على جبهته .. ثم يلوح بها فى الهواء .. وعليه بعد هذا أن يبقى فى كوخه معتزلا أربعة أيام كاملة يصبح بعدها الشيخ المختار من الله ..

وجميع أطفال الشيلوك فيما عدا اطفال العائلة المالكة تنزع أسنانهم الأربعة الأمامية بالفك الأسفل .. وكل الأولاد تجرى لهم عملية «التشليخ» وهى قطوع عرضية مميزة فى الجبهة ..

و بدون هاتين العمليتين لا يعتبر الواحد منهم قد أصبح رجلا ..



الدنكا

الدنكا أكثر قبائل الغابة تدينا . . وهم يعتبرون كل ظاهرة تحدث في الحياة اليومية حتى الظواهر التافهة إشارة الهية تستدعى ذبح شاه وتقديم قربان . .

ومما يروى أن أول طائرة أوربية نزلت فى تونجى بين قبائل الدنكا أثارت حالة من الرعب كانت نتيجتها أن ذبحت أكثر من خمسين من الثيران وقدمت قرابين .. وتقدم رجل عجوز من الدنكا واعترف بجريمة قتل كان يخفى خبرها من سنين . .

ومن الأمور العادية أن يلاحظ رجل من الدنكا وهو يقف فى حديقته ثمرة كبيرة من ثمار المانجو .. أكبر من الحجم العادى . فيهلل ويكبر ويأتى بشاه ويدور بها عدة مرات حول شجرة المانجو وينتظر حتى تبول فيذبحها ويسكب دمها على الثمرة ويقطع أذنيها وأطرافها ويعلقها على سارية ويسلخها ويوزع لحمها على جيرانه ويقدم جلدها لكهنة «نيالاك».

و « نيالاك » هو الرب الذى يعبده الدنكا وينظرون إليه باعتباره خالق الدنيا ومؤسس نظامها ..

« ونيالاك » معناها الحرفى « الذى فى السماء » .. أو . « الأعلى » .

والقوة الروحية الثانية التى يؤمنون بها هى « دنجديت » .. صانع الأمطار ولدنجديت قصة مثيرة ..

فقد أنزله الله من السماء .. بعث بالأم المقدسة من سمواته فهبطت على قبيلة أديرو و بطنها حامل ..

والتف حولها القرويون وذبحو الذبائح والقرابين فرحين مهللين .. وابتنوا لها كوخا جميلا ..

و بعد شهر كانت تضع مولودا ملائكيا له أسنان كاسنان الكبار و يبكى من عينيه دما .

وقالت الأم المقدسة وهى تشير إلى طفلها .. سيكون هذا الطفل راعيكم .. وحامى دياركم ..

وطلبت منهم أن يقدموا له الشياة والأبقار قرابين فقدموا لها ماطلبت فانشقت السماء عن أمطار غزيرة لم يشهدوا لها مثيلا .

ومن ذلك اليوم أطلقوا على الطفل اسم « دنجديت » أى المطر الغزير .

وعاشوا تحت حكم دنجديت سنين طويلة حتى بلغ دنجديت سن

الشيوخة ثم اختفى فى عاصفة فلم يعثر له على أثر .

وفى بعض الحكايات أن دنجديت مازال حيا .. وأنه خالد لا يموت، وأنه ينتقل بين قبائل الدنكا متلبسا صورة بشرية ..

وفى إحدى الأساطير أن دنجديث هذا اختلف مع زوجته « أبوك » وأرسل عليها طائراً قطع حبل النجاة بين السماء والأرض .. ومن ذلك اليوم والسماء منفصلة عن الأرض ..

ولدنجديت معابد كثيرة فى قرى الدنكا ..

ومعبد الدنجديت وحدة سكنية عادية تتألف من ثلاثة أكواخ. أحدها مغلق دائما وهو مسكن الدنجديت . و يقوم عليه اثنان من الكهنة هما الوحيدان اللذان يدخلانه .

وفى المعبد مجموعة من الحراب يقال أن الدنجديت نزل بها من السماء ويقال أن من يسرقها يموت أو تقطع يده .

وحينما يتقدم واحد من الدنكا بقربان إلى كاهن الدنجديت و يشكو من عقم زوجته مثلا فان الكاهن يمهله حتى يرى الدنجديت فى الحلم .. وهو فى العادة لا يقبل منه قربانا حتى يأتيه الدنجدبت فى الحلم و يعلمه بقبول القربان .. وحينئذ يأذن الكاهن للدنكا بالمثول بقرابينه . .

وبعد تقديم القربان يمسح الكاهن على رأس الزائر بمسحة من تراب المعبد ثم يدهن جسمه بالزيت المقدس . ثم يأخذ محتويات امعاء الضحية وينثرها على المذبح . .

وأحيانا يقدم الزائر هدية من التبغ مع القربان . .

والدنكا يعتقدون أن كل إنسان له روح أو شبح يخرج منه بالموت ويتجول فى كل مكان ، وهو الذى يسبب الأحلام . .

وحينما يحلم الواحد منهم بأن روح أبيه الميت جائعة فانه يبادر حينما يتيقظ بوضع أناء فيه بعض الدقيق والزيت إلى جوار الباب ليطعم الروح الهائمة . .

وأرواح الأجداد ينظر إليها بتقديس وإجلال باعتبارها أرواح هادية منقذة . .

وأنت ترى الدنكا حينما يقذف بسهمه فى الماء ليصطاد يهتف قائلا ايه ياروح أبى الهادية . .

وأحيانا حينما يتعرض لخطر داهم يهتف مناديا على روح الطوطم الحيوانى الذى يقدسه . . ايه ياروح ماريك ياروح الثعبان المقدس . . قوى زراعى . .

والعظماء المختارون تلبسهم الروح العليا . . وتكون لهم القدرة على

كشف الغيب وعلاج المرضى . . ويطلق عليهم إسم « تيت » ويذهب أفراد القبيلة لاستشارتهم . .

والدنكا يؤمنون بأثر اللعنة والبركة . .

والأب يبارك ولده بأن يبصق فى يده ويمسح البصاق على رأس ولده وعلى صدره ثم يأخذ من تراب الأرض ويحسوه عليه .

والأخ يلعن أخته ويقول لها فى ساعة غضب .. إذهبى لن يكون لك ولد .. ملعونة أنت وعاقر ما عشت فى هذه الدنيا .. وهى لعنة لا علاج لها إلا بأن يذبح الأخ شاه ويأخذ محتويات أمعائها ويبصق عليها ويدهن صدر أخته وبطنها وهو يقول :. إسمعى ياروح أجدادى .. لقد قلت ما قلته دون أن أعنيه .. وأنا الآن أتمنى أن يكون لأختى ولد جميل . . وأن تنجب ما تشتهى من الأطفال . .

والدنكا يؤمنون بأن الإنسان يستطيع أن يضر غيره بمجرد أن يشتهى هذا الضرر بجماع قلبه . . وإن الإرادة يمكن أن تقتل كما يقتل السيف بدون أن ينتقل صاحبها من مكانه . .

وهم يؤمنون بالقسم . .

ومن الأساليب المتبعة فى القسم أن يلعق الرجل مطرقة الحداد وهو

يقسم قائلا .. لأمت وأتحطم بهذه المطرقة إذا كنت أحنث فى قسمى ..

وساحر الدنكا يدعى أحياناً أنه يستطيع أن يؤخر غروب الشمس .. وهو فى سبيله إلى ذلك يجمع روث الفيل ويضعه بين الأعشاب فى اتجاه الغرب كمحاولة لا يقاف الشمس وتأخير دورانها ..

وصانع الأمطار شخصية هامة بين الدنكا .. وهو فى مقام شخصية الملك ولا يجب أن يموت موتا طبيعياً حتى لا تحل لعنة الشيجوخة بالقبيلة ..

وهو حينما يستشعر دنو أجله يطالب أن تحفر له حفرة عميقة ينام فيها على عنجريب من جلد بقرة وحوله المقربون من ذريته وأصحابه .. ويظل بلا طعام ٢٤ ساعة حتى يفتر تماماً فيهيل عليه أصحابه التراب حتى يختنق فيبادرون إلى دفنه .. وفى العادة يدفنون معه ثوراً أو بقره .. ويصبون اللبن على قبره .

وطقوس المطر تبدأ فى نهاية الجفاف من كل عام ..

وأحياناً يرفض صانع الأمطار القيام بالطقوس ويعتكف فى كوخه فيقوم كاهن آخر أقل منه مرتبة بالإشراف على الطقوس . ويأخذ كوباً مثقوبا مليئا بالماء « مثل الدش » ويعلقه على باب الكوخ .. ثم يدخل وهو يغمغم .. ياإلهى ها أنذا أحتمى من المطر فى داخل كوخى .. ياله من

مطر غزير .. ويحدث فى حالات كثيرة أن تصدق السماء على كلامه فتمطر ..

وكل طائفة من طوائف الدنكا لهاحيوان تقدسه وتحرم صيده «طوطم» وتعتبر نفسها منحدرة من سلالته . . واحيانا تقدس نباتا . . أو ظاهرة طبيعية .

الاسد . . والثعبان . . والفيل . . والضبع . . والبومة . . والتمساح . والثعلب . . والنار . . والسحاب . . والنهر . . والقوقع . . ونخيل البلح . واشجار البامبو .. كلها طواطم دنكاوية .

والدنكاوى الذى يقدس الثعبان حينما يلتقى بثعبان من الفصيلة التى يقدسها يرش على ظهره التراب ليطيب خاطره ولا يتعرض له بسوء .

والدنكاوى الذى يقدس الاسد يذبح خروفا ويبعثر لحمه فى الغابة ليأكله الاسد .

والدنكاوى الذى يقدس الضبع يقدم الطعام للضباع كما يقدمه لاولاده .

وإذا قطع رجل الشجرة التى يقدسها فانه يموت وإذا احرق خشبها فإن دخانها يعمى عينيه .

وهناك حكايات خرافية تروى عن هذه الطوطمية .

فالدنكاوية الذين يعيشون فى خور آدار يحكون عن « اليك » الجميلة التى خرجت من زبد النهر . . وكيف أن القرويين الذين عثروا عليها أخذوها فرحين إلى القرية . . وهناك تبخرت « اليك » الجميلة وتحولت إلى ماء عند أول لمسة من يد رجل .

وحينما ذبح القرويون الذبائح وقدموا القرابين متوسلين إلى الجميلة « اليك » أن تعود . . سالت مياه اليك العطرية وعادت إلى النهر من جديد وأخذت معها الذبائح والقرابين .

ومن يومها وهذه القبيلة الدنكاوية تلقى فى النهر بقرة حية مع عجلها الصغير فى موسم المطر قربانا للجميلة « أليك » .

وفى قبيلة فاكور يحكون عن فاكور الذى خرج من الصخر . وكان يحلب العنزات ويشرب كل ما فى ضرعاتها من لبن حتى قبض عليه البطل أيويل .

وحاول فاكور الخلاص من قبضة أيوبل فلم يستطع فتحول إلى سيد قشطة ثم إلى عصفور ثم إلى غزال ولكن البطل أيوبل ظل ممسكا به.

وانفجرت الصخرة التى خرج منها فاكور وكان لها دوى هائل

هصور .. وقدم القرويون بقرة قربانا للصخرة لارضائها فابتلعتها الصخرة .
ونزل المطر مدرارا .. وابتسمت السماء . وقبلت ما قدم القرويون من قرابين .

ومازالت السماء إلى الآن تسقط على الأرض هذه الصخور .. ولكنها الآن لاتزيد عن حصوات صغيرة .

وبعض القبائل يعبدون الشهب والنيازك التى تتساقط على الأرض ويقدسونها كالطواطم .

والدنكا يطلقون على اطفالهم أسماء حسب المناسبات . فيسمى الواحد منهم أبنه « ألوت » أى رطب وبارد .. لآن ميلاده كان فى موسم الأمطار .

« أديو » أى الباكى .. لأن ميلاده صادف حدوث وفاة فى العائلة .

« كوينير » الذى لا يعرف خاله .. لانه ولد اثناء خلاف بين أبيه وخاله .

واسماء أخرى مثل « الكل يصلى » لأن ميلاده حدث بعد فترة طويلة من العقم .. وبعد أن اشتركت القرية كلها فى الصلاة من أجل ميلاد أبن .. وبعض الأسماء تكون أسماء اجداد أو أقرباء اعزاء أوحيوانات مقدسة .

والدنكا يطلقون الأسماء على مواشيهم كما يطلقونها على أولادهم ويعرفون كل بقرة باسمها .

وعلاقة الدنكاوى بثوره و بقرته أكثر من علاقة أنسان بحيوان . فهو يغنى لها . . و يحنو عليها .. و يناديها باسمها . . و يناجيها فى خلوته . و يبلغ من حبه لها أنه يؤثر موت أولاده فى موسم الجفاف جوعا على أن يذبح لهم بقرة من بقراته .

وهو يفضل خلفة البنات لأن العرسان يمهروهن أبقارا .

وعادة تشاليخ الجبهة ونزع الإسنان الاربعة فى الفك السفلى متبعة فى الدنكا كما فى الشيلوك .. ولا يعتبر الدنكاوى رجلا إلا بعد أن تشلخ جبهته وتنزع أسنانه .

والنساء يسرن حليقات الرؤوس . . والرجال يصففون شعورهم و يدهنونها بالصمغ و بول البقر ..

والموتى يدفنون وفقا لطقوس وتقاليد خاصة .. فالميت يوضع على جنبه اليمين و يده اليمين تحت صدغه وذراعاه وساقاه مثنيان مثل الجنين فى بطن أمه .. وتحفر له حفرة على باب الكوخ من الجهة اليمنى .. يدارى فيها و يغطى بجلد بقره ثم يهال عليه التراب . . و يبقى أقاربه حول الحفرة

أربعة أو خمسة أيام ناعين فى العزاء . . وتحسو النسوة التراب على وجوههن ويندبن و يعولن . . و يذبح ثور و يقدم لروح الميت لترضيته حتى لا يأخذ معه بقية العائلة . . وتبنى بالقرب من الحفرة طابية من الطين يرشق فيها قرنا الضحيه . . وتوضع فى وسطها عصا تتدلى منها حبل البهيمة اشارة إلى أن القربان تم تقديمه .

و يمتنع أهل الميت خمسة أيام عن شرب اللبن . . و يطلق النساء شعورهن ولا يحلقنها طوال هذه المدة .



النوير .. الباري .. اللانجو .. البونجو .. الزوبي

النوير والدنكا أولاد عمومة واحدة . وهم مثل الدنكا يقدسون الأسد والتمساح والثعبان وشجرة الكاك والنهر .

والنويرى الذى يقدس النهر حينما ينزل إلى النهر ليعبره يلقى بحبة من الخرز فى الماء قائلا للنهر . يا جدى العزيز . خذ هـــذه ودعنى أعبر فى سلام ..

والنويرية التى تقدس النهر لا تعبره عارية وإنما لا بد أن تلبس إزاراً حول نصفها الأسفل .

والنوير يؤمنون بالرب « كاوث » . وأطفاله ملائكة السماء . . وكل ملاك له عندهم اختصاص . ملاك للحرب . وملاك للصيد . وملاك للزرع . وملاك للماشية . وملاك للأمطار .

والملائكة طيور . ولذلك يحرم النوير أكل لحم الطيور .

وحينما تحل روح الملائكة فى نويرى فإنه يصبح نبيا ..

وأشهر أنبياء النوير هو « جان دنج » وقد بدأ حياته شيخ قبيلة

« كورمون » ثم تلبسته الأرواح فترك أكواخ عشيرته وهام على وجهه فى الغابة حيث اعتكف تحت شجرة لا يأكل .. و بعد شهور من التأمل عاد إلى كوخه ليستمر فى الصيام . . وكان يقضى الأيام الطويلة يتحدث إلى نفسه .

و يحكى عنه أنه كانت له قوى روحية غير عادية . وأنه أوقف و باء الجدرى وطاعون البقر بصلواته وأدعياته وأنه كان يعالج العقـــيم والعاقر والمجذوم . .

وقد بنى فى عهده هرم كبير قاعدته قطرها ٣٠٠ قدم وارتفاعه ٥٠ قدما وحول قاعدته مجموعة هائلة من سنان العاج .

والنو يرى يؤمن بالهتة وملائــكته و يتأسى و يتصبر بإيمانه إذا أصابه مكروه . و يقول هذه إرادة « كاوث » .

و إذا ماتت له بقرة . يقول . كل ما أملك لــكاوث ..

و بعض النو يرلا يأكلون البقرة التى تموت . يقول النو يرى فى حزن كيف آكل لحم بقرتى العزيزة . وقد كنت أرقص حولها . وأشرب لبنها . وأدهن ظهرها بالتراب .

ولــكن هناك من النو يرمن يقول . العين والقلب يبكيان . ولــكن

الأسنان تضحك والمعدة تشقشق فى سعادة . وهو لهذا يدع الحزن جانباً ويبادر إلى أكل بقرته التى تموت دون أن يتردد .

والنوير يحتفظون بحربة مقدسة فى كوخ ويضعون على حراستها كاهنا هو الوحيد الذى يلمسها أما الباقون فمحظور عليهم لمسها . و إذا حدث ورآها أحدهم فلا بد له من ذبح قربان .. وهم يعتقدون أن هذه الحربة نزلت من السماء ويقيمون لها الطقوس والعبادات .

والاختلاط .. والعرى .. هو العادة بين النوير . وفى حفلات الزواج ينام الأولاد والبنات معا فى أكواخ واحدة . وهم لا ينظرون إلى البكارة باعتبارها مسألة ذات أهمية . . والاتصال الجنسى ليس فيه حرج طالما أن الولد والبنت لا تربطهما صلة دم . وطالما أنه لا يحدث حمل ..

والبنت التى تحمل بدون زواج تقل فرصتها فى الزواج . و إذا وجدت زوجا فإنها فى العادة تكون الزوجة الثانية له ..

ولكن برغم هذه الحريات الممنوحة للبنات فإن البنت فى العادة لا تعطى نفسها بسهولة . وهى غالبا بحكم دلالها واعتزازها بجسمها وأنوثتها تحافظ على نفسها ولا تعطى جسمها إلا لزوجها ..

والأرملة بعد وفاة زوجها تصبح من نصيب إبنه . أو أخيه . وفى

إمكانها أن تتخذ عشيقا وتعيش معه . ويكون الأطفال الناشئون منتسبين الميت ..

والرجل الذى يموت أخوه دون أن يتزوج يصبح من واجبه أن يتزوج زوجتين واحدة له وواحدة لأخيه الميت .. وإذا مات له عدد من الأخوة فإن عليه أن يتزوج عدداً من الزوجات بعدد أخوته الذين لم يتزوجوا ..

وتستطيع الزوجة أن تطلق زوجها بأن ترد له أبقاره الذى دفعها مهراً وتعود إلى بيت أبيها ..

والمهر يتراوح فى العادة بين عشر بقرات ومائة بقرة يستولى على معظمها الأب والأخ الأكبر .

والنويرى لا يصبح رجلا .. ولا يصبح أهلا للزواج .. إلا بعد أن تجرى له عملية « تشليخ » .. وتنزع أسنانه الأربعة الأمامية السفلى كالعادة عند الدنكا والشيلوك ..

وهم ينتزعون أسنان أولادهم بسنارة سمك .. بدون أى محاولة لتطهيرها أو تعقيمها ..

* * *

وفى قبائل « البارى » نظام من نوع آخر .. فهم يتبعون فى حياتهم

سياسة طبقية •• ينقسمون إلى سادة « لوى » وعبيد « دو بى » •

العبيد يشتغلون بالخدمة فى الأكواخ و بطهى الطعام وقطع الأشجار وليست لهم حقوق عند السادة سوى إيوائهم و إطعامهم ••

والسادة أنفسهم ينقسمون إلى طبقات •• طبقة الكهنة وعلى رأسهم صانع المطر وهو رجل عالى المقام تحل فيه الروح العليا و يدفع له الجميع ضرائب سنوية •• و يليه فى المكانة سيد الأرض وهو المشرف على البذر والحصاد والرى والزراعة • وكلا الاثنين لهما حاشية من السحرة ومحترفى التطبيب ••

وهناك أيضا شيخ القبيلة وأعيانها والأغنياء •• و يلى هؤلاء فى المكانة أفراد القبيلة العاديون والصيادون والحدادون وهم فئات محتقرة ••

والبارى يعتقدون أن الطبيعة يسيرها إثنان من الإلهة . «جان لوكى» وهو رب السماء . و « جان لوكاك » وهو رب الأرض .

والأول يرسل البرق والرعد والمطر و يبعث الحياة فى الطبيعة . والثانى يبعث المرض والموت والحرب . وعنده مستقر أرواح الموتى جميعهم . وهو كامن فى جذور الأشجار . وفى البذور الكامنة فى الأرض.

وهم يقدمون القرابين والذبائح للاثنين ولرب الأرض والموت أكثر لاسترضائه وتطييب خاطره .

وهم فى العادة عندما يموت لهم ميت يذبحون ثوراً أو بقرة أو عنزة . ويعلقون الحبل الذى كانت تساق به فى عصا ترشق إلى جوار الحفرة التى دفن بها الميت إعلاناً لرب الموت والدمار بأنهم قد ذبحوا له القربان حتى يتركهم فى حالهم .

والبارى يقدسون أرواح موتاهم ويعتقدون أنها يمكن أن تحل فى حيوانات عديدة ولهذا فهم يقدسون الأسد والثعبان والتمساح مثل سائر القبائل . ويعتقدون أن الثعبان الأخضر الذى يظهر فى الغابة هو روح جدتهم فيقدمون له اللبن ليشرب . ويتبركون بشجرة التين ويدهنونها بالزبد واللبن ودم القربان فى المناسبات .

وفى نهاية موسم الجفاف تتجه جميع قبائل البارى إلى صانع المطر تحمل القرابين والذبائح . وفى العادة تذبح بقرة سوداء وعنزة سوداء وتمسح بدمها و بدهنها الأشجار المقدسة . ثم يلجأ صانع المطر إلى كوخه و يستخرج حجارة الأمطار وأغلبها حجارة من الكوارتز والزجاج و يغسلها بالماء ثم بزيت السمسم وهو يقرأ عليها الأدعية والابتهالات وكلها نداءات إلى أرواح أجداده باستدرار المطر فإذا لم تنفع هذه الادعية فإنه يذهب بنفسه ليمارس هذه الطقوس على قبور أجداده . فإذا لم تنزل الأمطار فإنه يذبح ثوراً و يقدمه قرباناً . و يمسك بخطاف حديد يحتفظ به للمناسبة و يرفعه إلى فوق

ثم يجذبه إلى تحت كأنه يشد شيئا، وهو يقول إنه يشد السحاب إلى الناحية التي يريدها .

فإذا لم تنزل الأمطار بعد كل هذا . فإن القبائل الثائرة تقبض على صانع الأمطار وتقتله .

وطقوس الدفن تشبه طقوس الدنكا . يرقد الميت على باب الكوخ على اليمين إذا كان إمرأة . وعلى اليسار إذا كان رجلا . ويوضع الجسد فى وضع جنينى على الجنب الأيمن وعينه متطلعة إلى داخل الكوخ . ثم يغطى بجلد بقرة . وتملأ الحفرة بالتراب . ويضع أقارب الميت التراب على رؤوسهم . وترقص القبيلة رقصة الحرب . وتذبح شاه وتقدم قربانا للمناسبة ثم تقام وليمة يذبح فيها عدداً من الثيران يتناسب مع ثروة الميت ويصل أحيانا إلى مائة ثور . وتوقد النيران على أطراف القرية وتشوى الذبائح . ويأكل أفراد القبيلة ثم تلقى الفضلات فى النهر وتعلق قرون الذبائح على عصى ترشق بجوار الحفرة التى دفن بها الميت .

وإذا كان الميت هو سلطان القبيلة فإنه يترك فى الحفرة ثلاثة أيام يقدم له الطعام فيها كل يوم حتى يتعفن وتنفجر بطنه ثم يدفن ويهال عليه التراب .. وتدور حلقات الرقص حوله ..

وفى الماضى كان أحد عبيد السلطان من « الدوبى » يقتل ويدفن بجواره ..

وإذا كان الميت هو صانع المطر فإنهم يبادرون بإغلاق فتحات جسمه حتى لاتهرب الروح .. يسدون أنفه وفمه حتى فتحة الشرج يسدونها .. ثم يدفن كالعادة مع تقديم القرابين والرقص حوله ..

وإذا مات صانع المطر مقتولا نتيجة لعجزه عن استدرار المطر .. يلقى به فى الغابة إلى جوار النهر ويغطى وجهه بالطين وتفتح بطنه حتى تخرج روحه الشريرة التى يعتقد البارى أنها تحبس عنهم المطر ..

* * *

وعلى الضفة الغربية للنيل فى الجنوب تعيش طوائف « الدوبى » وهم أكثر أهل الغاب بدائية . لا يعتمدون على زراعة ولا على رعى . وإنما يعتمدون على الغابة مباشرة . يتغذون على عيش الغراب وبعض أنواع الجذور . والفواكه . وعسل النحل . ويصطادون فيران الغابة ويأكلونها ولا يعرفون نظاما . ولا يتجمعون فى قبيلة . ولايتساكنون فى قرى . وإنما يهيمون على وجوههم كالحيوانات البرية يعيشون على مايجدونه .

وهم أقرب أهل الغابة إلى صورة طرزان الحالية كما يتصورها المؤلفون.

وليست لهم حضارة .

وربما كان هذا هو السبب فى أن الواحد منهم حينما يعثر على مجتمع مثل البارى .. فإنه يعيش على خدمته . يأكل فضلاته دون أن يطلب لنفسه حقا..

* * *

وفى قبائل « البير » يؤمنون باله اسمه « تومو » . و يضعون له الطعام تحت الشجر حتى يأكل ويشبع .

وهم لايدفنون موتاهم و إنما يلقون بهم فى العراء خارج القرى ويضعون إلى جانب الجثث أوانى الماء حتى يجد الوحش الذى ينهشها ما يبل ظمئه .

وفى هذه القبائل . الله اسمه « تومو ».. والمطر أيضا اسمه « تومو ».

* * *

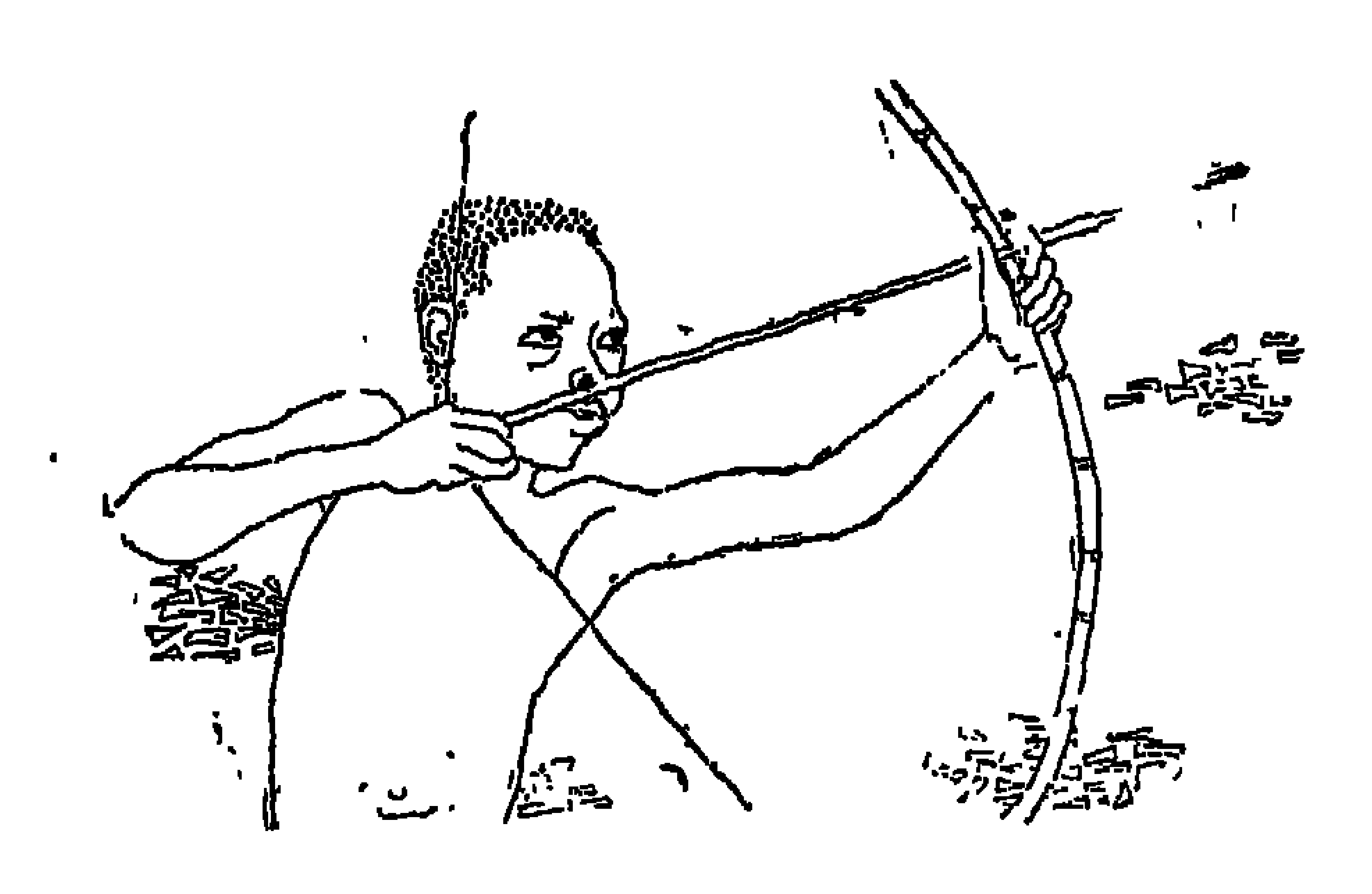
وفى قبائل « اللانجو » يؤمنون بإله إسمه « نايجوك » .

و إلى جوار كل كوخ يبنى اللانجو مزاراً لهذا الإله عبارة عن بضعة قوالب من الحجر مصفوفة فى دائرة صغــــيرة وعليها سقيفة أشبه بظاليلة الكتاكيت . وهم يقدمون القرابين لهـذا المزار و يسكبون دم الذبائح ومحتويات أمعائها بداخله .

وفى قبيلة « البونجو » حينما يفشل صانع المطر فى استدرار الأمطار بحجارة الكوارتز . فإنه يخرج من كوخه مجموعة من الأبواق . ويأخذ هو وأتباعه فى النفخ فيها والهتاف . أيها المطر إنزل . . أيها المطر إنزل حالا . .

وهم فى طقوس الدفن . يضعون مجموعة من التماثيل الخشبية للحيوانات التى كان يصطادها الميت مع تماثيل أخرى آدمية . و يقيمون الولائم و يديرون أقداح الخمر و يرقصون ثم يأخذون فى إصطياد تماثيل الحيوانات بنبالهم . .

والبونجو لا يهتم بخيانة زوجته إلا إذا رآها مع عشيقها فى حالة اتصال جنسى . وفى هذه الحالة يكتفى أن يضربها علقة . و يطالب عشيقها بتعويض . .



وداع الغابة

كان الليل شديد الظلمة ..

وكانت الحرائق التى أشعلها الزنوج لتطهير الأرض تبدو كسارج زيت متناثرة تضىء الغابه . . وحلقه الراقصين التى تتوسط هذه الساحة الطبيعية الساحرة تموج بالحركة .. زنوج الزاندى الذين عادوا من الغابة بصيد سمين وشربوا المريسة يخاصرون رفيقاتهم ويهزون أردافهم و يدورون فى حلقات يرقصون فى نشوة و يغنون ..

مى أبى مانجا نارى ..

كوآجو داياري

كوجو وووو ه

والكهول الذين قعدت بهم الشيخوخة يكتفون بهز أكتافهم ورؤوسهم مع الإيقاعات وأفواههم التى تكسرت أسنانها . . تضحك فى اشراق ..

ووووه أينا جوجو

إينا كومبا

زابو زابو

أيوا ايمى بيبى ووووه

طفولة الإنسانية الحلوة .. كنت أراها حولى .

الطفولة بكل براءتها .. وخطاياها .. ومرحها .. وانطلاقها النشوان كانت ترقص على نقرات أشجار التيك المجوفة .. لا يسترها شىء . .

لم يكن عند واحد من هؤلاء الأطفال الكبار شىء يخفيه . . كل منهم كان يغنى من أحشائه . . وكان يعطى نفسة كلها للحظة التى يعيشها .

لا افتعال .. لا خجل .. لا تمثيل .. لا غرض من وراء أى شىء .. وإنما الكل يرقص لأنه فرحان . لأنه يعيش بجماع قلبه .

وشعرت بالدماء تدب فى أوصالى الباردة .. وشعرت بطفولتى الدفينة تحت ركام ثلاثين عاما من كابوس المدينة .. تطل برأسها . . وتتمطأ . . وتنبثق من تحت الردم .. وتسرى فى جسدى كسيال من الكهرباء ..

وشعرت بنفسى أقوم .. وأهتز .. وأرقص .. كما لم أرقص فى حياتى كطفل مولود تهدهده أمه .. الطبيعة ..

همج .. نعم .. ولكن ما أحوجنا إلى الكثير من براءة هؤلاء الهمج ..

وحوش ..

آكلو لحوم البشر ..

نعم ..

جد هذا الزنجى العجوز الذى يهز كتفيه أكل ذراعا بشرية فى الأيام الخوالى.. ربما.. ولكن ماذا فعلناه نحن بالقنبلة الذرية فى عصر النور والمعرفة والحضارة ..

كم أكلت هذه القنبلة من أذرع وسيقان . وكم هشمت . وكم نهشت من وجوه جميلة فى هيروشيما .

كم سلخ هتلر من وجوه الألوف فى داكاو . وكم ازدرد فى الحرب الأخيرة ؟! . سبعة ملايين : أكثر من سبعة ملايين

ووووة آنى نامانجا أبايى

رى وينى أندو انى ما نجايى

ووووه

الزنجى العجوز يهز كتفيه ويقهقه فى مرح ، من حسن الحظ أنه

لا يستطيع أن يقرأ ما يدور بخلدى .. و إلا لأغمى عليه من الرعب

وحوش .. همج .. برابرة .. يؤمنون بالخرافات ..

و بماذا نؤمن نحن!؟

ووووه أينا جوجو

أيغا كومبا

زابو زابو

أيو ايمى بيبى ووووه

كنت أشعر بدوار غريب مسكر

كنت أشعر أنى عدت إلى أصلى .. إلى أهلى .. إلى حضن عائلتى .. بعد قرون غريبة عشتها طوافا .. متغربا .. بين غرباء لا أعرفهم .

هنا آلهتى . جوك : ونايجوك . ومارياك . ومبولى .. وجان لوكى .. وجان لوكاك . وكاوث . ودنجديت . وتومو .

هنا الآلهة أرحم من آلهـة الأولمب الذين يلقون عبادهم المذنبين فى نيران « هاديس » .

« مارياك » أرحم من زيوس ..

هنا الناس أرحم .. وأكثر إنسانية من ناس المدينة .

وهنا حضن الطبيعة أكثر دفئا .. وأكثر خصبا .

وصدر الطبيعة هنا رطيب .. مبلل بالأمطار .. مخضل بالندى .. ضرعه لا يجف .. ولا ينضب منه الحليب .

كم تمنيت أن استلقى على هذا الصدر وأنام .

لماذا يهدنا التعب هكذا فى المدن .. كل المدن .

فى القاهرة . فى لنـدن . فى موسكو . فى باريس . فى كل المدن .. الناس مهمومون . شاحبون . يسيرون بخطى مثقلات .. كأنهم على سفر شاق لا ينتهى .

فى الخرطوم سمعت الشاعر الفيتورى فى آخر قصائده يقول ..

بعض معانينا العذاب يخفيها

يمتصها حتى يلاشيها

يبنى ستاراً حولها قاتما

تلمسه الروح فيدميها

* * *

بعض معانينا حياة تموت

يموت فيها الفرح

يموت حتى الحنين

ونحن نجثو حولها خاشعين

* * *

بعض معانينا خطى مثقلات

بالحقد والنقمة

ملوية الأعناق مستكبرات

لا تعرف الرحمة

لأنها تخوض فى الظلمة

أنهم فى الخرطوم أيضا يتعثرون فى القلق والنقمة والظلمة .. و يسيرون بخطى مثقلات . مهمومون . شاحبون .

وووه أينا جوحو

أينا كومبا

زابو زابو

أيوا ايمى بيبى وووه

لماذا لا نعرف مثل هذا المرح الطليق عندنا فى المدن . لماذا لا نرقص هكذا من أحشائنا .

أن عندنا كل أدوات المرح والرقص .

عندنا سينمات ومسارح وأوركسترات .

عندنا مضحكون محترفون يسهرون على أضحاكنا .

عندنا إذاعة وتليفزيون .

عندنا أراجوز .

عندنا كتب .

عندنا كهرباء انهزم بها الظلام .

عندنا ماء فى الحنفيات . لا حاجة لنا لأن ننتظر من يصنع لنا الأمطار .

عندنا ألف صنف وصنف من الحلوى . والمخللات . والمشهيات .

عندنا أفخر أصناف الويسكى ؛

عندنا أجمل نساء . وأشهى نساء .

عندنا أموال فى البنوك .

لماذا كل أغانينا حزينة . لماذا وجوهنا شاحبة . لماذا قلوبنا مريضة .

لماذا أرواحنا متعبة . لماذا نشعر بأننا مذنبون .

هل هى المعرفة .

هى هى المعرفة التى جلبت لنا الحزن .

هل هى القوة التى وضعها العلم فى أيدينا : . هى التى عمقت التناقص الذى نعيش فيه كبشر أقوياء قادرين . وفانين عاجزين فى نفس الوقت .

هل هى القنبلة . والذرة . وزجاجة الدواء . وكل خبرات العلم وشروره. هى التى أثقلت كواهلنا بالمسئولية كحملة ووارثين لكل هذه الأسلحة المخربة والنافعة .

أم هموم المسئولية .

أم هو التصوف الشرقى الذى صبغ أمامنا كل شىء بصبغة الأشياء الزائلة . وجعل من كل المسرات والأفراح باطل الاباطيل . الكل باطل وقبض الريح :

أهى ترنيمة الأنجيل .. طوبى للحزانى :

أهو الدين .. أم الفن .. أم العلم .. أم الثلاثة مجتمعين صنعوا لنا هذه الحضارة الحزينة .

لا أدرى ..

ولكنى أعلم أننا نعيش فى المدن .. كل المدن . . حزانى .. مهمومين قلقين .. معذبين :

وووه أينا جوجو :

أينا كومبا ..

زابو زابو ..

أيوا ايمى بيبى وووه ..

لا عهد لنا بمثل هذا المرح الطليق أبدا ..

الزنجى العجوز ما زال يهز كتفيه و يضحك . رجله مقطوعة . أكلها أسد .. ولـكن ماذا يهم .. أنه يرقص بكتفيه . . و يهز رأسه مع النغم . و يضحك ..

الله يمنح أطفاله البسطاء الفرح . هذا سره ..

أننا نقول عنهم أنهم وثنيون .. كفرة .. ولـكن الله يضفى عليهم من الفرح والمسرة ما يضفيه على أحبابه ..

فى لقاء عارض مع طبيب من أطباء الجنوب وجدت عنده أكداسا مكدسة من الأدوية والعقاقير . ما زالت فى صناديقها . لم تفتح . . وقال الطبيب .. أنهـا أدوية السكر والقلب والضغط والذبحـة وتصلب الشرايين .. وهى أمراض لا تعرف طريقها إلى الغابة .. وكل أدويتها ترد بحالها دون أن يصرف منها قرص ..

الفرح يحصن الزنوج من هذه الأمراض التى لاتصيب إلا سكان المدن ..

ووووه أينا جوجو

أينا كومبا

زابو زابو

أيوا يمى بيبى ووووه

ونظرت إلى ساعتى .. كان الليل قد انتصف .. وكان على أن أحزم حقائبى استعدادا للعودة .. لالحق بالطائرة التى تقوم فى الثالثة بعد منتصف الليل ..

والقيت على الغابة التى أحببتها نظرة وداع ..

وكانت الحرائق التى أشعلها الزنوج لتطهير الأرض .. مازالت تشتعل كمسارج الزيت .. وتضىء الطريق ..

وكان الرقص مازال على أشده ..

ونظرت إلى السماء .. كانت قاتمة هائلة تبرق فيها النجوم .. كملاءة سوداء فيها ملايين الخروق ..

الرسـام



بهجت عثمان

- من مواليد القاهرة

- درس النحت فى الفنون الجميلة وحصل على الدبلوم بامتياز فى سنة ١٩٥٤ .

- سافر الى السودان سنة ١٩٥٥ واشتغل بالتدريس لمدة سنة .

- متزوج وله طفلان .

- اشتغل بالرسم والكاريكاتير فى جريدة المساء وروز اليوسف وصباح الخير .

- تمتزج فى ريشته رقة الشاعر وصوفية الفنان الحالم .

- أمنيـة حياته أن يتفرغ للنحت ويمنحه كل قلبه وعمره .